رواية

الخَبِيث

مَحْمُود الجعِيدِي

عنوان الكتاب : الخَبِيثُ
المؤلف : مَحْمُود الجعِيدِي
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف :عبد الرحمن حافظ
رقم الإيداع : ٢٧٩٥ / ٢٠١٧
ردمك : 978-977-6549-25-8
الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

تويا
دار تويا للنشر والتوزيع
دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رواية

الخَبِيث

مَحْمُود الجعِيدِي

دار تويا للنشر والتوزيع

سهِّير ليالي ويّاما لفِّيت وطُفت
وفي ليلة راجع في الضلام قُمت شُفت
الخوف. كأنه كلب سدّ الطريق
وكنت عاوز أقتله.. بسّ خُفت

(صَلاح جَاهين)

مُقَدِّمَة

الهـواءُ مُبتـلٌّ اغتسـلَ لتـوِّه بمياهِ الأمطـارِ التـي هبطـتْ في غـيرِ موسـمِها الشـتوي..

موقـفُ سـيارات أجـرة يعلـوه سـقفٌ مَعـدني أكلـه الصـدأ ولم يعـد يقـوى عـلى حمايـة مَـن يقـفُ أسـفله..

أصـواتُ المُناديـن وهـم يُعلنـون عـن الجهـاتِ التـي سـتنطلقُ إليهـا السـياراتُ، تختلـطُ بنهيـقِ حـمارٍ يجـرُّ عربـةً خشـبيةً قديمـةً يقودُهـا عربجـي عجـوزٌ رثُّ الثيـاب.

تتناثـرُ لطخـاتٌ مـن الطـين عـلى بنطـالِ أحـد الشـباب، فيسـبُّ ويلعـنُ أم وأب العربحـي العجـوز، والحـمار الـذي معـه.. يُبادلـه الحـمارُ بنهيـقٍ عـالٍ بـدا كـردٍّ بليـغٍ عـن كلِّ السـباب.. أثـار ذلـك حفيظـةَ الشـاب، فحـاول البطـشَ

بالعربجـي لـولا أنْ حـال دون ذلـك بعـضٌ ممـن يُمكـن أنْ نُطلـق عليهـم مجـازًا أولاد الحـلال..

حـين استسـلم الشـاب لما وقـع، ابتعـد وهـو يـضربُ كفًّـا بكـفٍّ عـلى سـوء حظـه في أثنـاء ذهابـه لمقابلـة عمـل.. يلمـح الترعـةَ التـي يقبـعُ فوقهـا كوبـري حجـري مـا زال صامـدًا منـذ حقبـة السـتينيات..

يخطـو أسـفل الكوبـري في ذلـك الفـراغِ الـذي اعتـاد المنـادون وسـائقو الأجـرة أن يقضـوا فيـه حاجتَهـم..

تأفـف كثـيرًا وحـاول أن يغـترفَ بعـضَ الميـاه مـن الترعـةِ لأجـل مسـحِ مـا علـق بـه.. يلمـح طفلـةً لا تتجـاوزُ العـاشرة تقـفُ أسـفلَ حافَّـة الترعـة، وقـد ابتلَّـت ملابسُـها وهـي تنظـرُ إلى صفحـة الميـاه، مصدومـة، تتطـوَّح مثـل ورقـةٍ جافـةٍ سـقطت مـن فرعِهـا وقـت نسـمات الخريـف..

كانـت الطفلـةُ زرقـاء العينـيْن، ترتـدي فسـتانًا ورديَّ اللون، وقـد أحاطـت عنقَهـا بعِقـدٍ منظـومٍ مـن الذهـب، تعليقتـه عـلى هيئـة ميـزان..

نـسي الشـاب مـا كان يـودُّ فعلـه.. أصابتـه بالوهـم وفي كونهـا إنسـيَّة مـن بنـي البـشر.. اقـترب منهـا بحـذرٍ، وهـو يطلـبُ إليهَـا الرجـوعَ حتـى لا تسـقط.. لم يبـدو لـه أنهـا

سـمعته أو حتـى شـعرت بـه.. ترنَّحـت واهتـزَّت مثـل فـرع شـجرة في مهـبِّ ريـحٍ شـديدةٍ..

رفعتْ يدَها الصغيرةَ وأشارت..

جـرى ببـصره سريعًـا فـوق يدهـا حتـى انتهـت بـه عـلى صفحـةِ الميـاه التـي بـدَت صامتـةً مثـل أسـفلت طريـقٍ دولي سريـعٍ..

شـمَّر كُـمَّ بدلتـه بإحـكامٍ، ثـم مـدَّ يـدَه في المـاء حيـث أشـارت، وقـد ظـنَّ أنهـا أسـقطت شـيئًا.. بـرودة الميـاه جمَّدت أصابعَـه حـين لامسـها لكنـه أكمـل وغـاص حتـى معصمـه..

لامـس شـيئًا طريًّـا، زلقًـا، وقبـل أن يقبـضَ عليـه أفلـت منـه بسرعـةٍ.. ارتعشـت أعصابُـه ونظـر نحـو الطفلـة المسـتمرَّة في التحديـق.. عـاد يجـولُ بيـده حتـى كاد المـاء أن يُلامـس كتفـه.. أخـيرًا أمسـك بـه.. رفعـه مُتناسـيًا مـا حولـه أو مصدومًـا..

عينـاه جحظتـا وسـقط قلبـه مـن فـوق قمـة جبـلٍ صخـري حـين خرجـت يـده بجثـة فتـاةٍ صغـيرةٍ.. الزمـن دار مـن حولـه ببـطء.. أقسـم فيـما بعـدُ بذلـك.. قطـراتُ المطـر توقفـت في الهـواء مُتحديـةً قانـون الطبيعـة.. الهـواءُ خـرج مـن صـدرهِ فتجمَّـد أمـام عينيْـه، كتلـةً ثلجيـةً رقيقـةً..

جـال ببـصرِه بـين الجثـة وبـين الطفلـة التـي تقـفُ بجـواره.. هـل أصابـه الوهـمُ بخيالاتـهِ أم أنهـا فقـط راحـت تتـلاشي تدريجيًّـا كبخـارِ مـاء يطفـو فـوق لـوح زجـاجٍ أبيـض ثـم تختفـي تمامًـا..

حـين اسـتوعب الموقـفُ قليـلًا ودقَّـق النظـر في الجثـةِ مـرةً أخـرى اكتشـف الحقيقـة المُفزعـة..

إنهـا جثـةُ الطفلـة التـي كانـت تقـف بجـواره منـذ لحظـاتٍ.

الفَصْلُ الأوَّلُ

ليلـةٌ أخـرى جافـةٌ، حـارَّةٌ، وصاخبـةٌ مـن ليـالي القاهـرة.. حيـث كل شيء ممكـنٌ لـه أن يحـدثَ، فهـو يحـدثُ، وبـكلِّ أريحيَّـةٍ مُمكنـةٍ.. عـلى الناصيـة امـرأةٌ فقـيرةٌ تمـدُّ يدَهـا.. عيناهـا فقيرتـان مُتعبتـان.. أخـرجُ لهـا مـا جـادت بـه يـدي.. تدعـو لي بالعـمَارِ وطولـةِ الأجـلِ، وراحـةِ البـال.. كومـة طويلـة مـن الأدعيـة لـو أصابنـي منهـا سـهمٌ واحـدٌ لعِشـتُ سـعيدًا..

ومـا يحـدثُ في الأسـفل لا يحـدثُ في الأعـلى.. إذ وعـلى نفـس الناصيـة ونفـس المربـع لكـن بامتـدادٍ راسي حيـث الطابـق الثـاني عـشر مـن تلـك العـمارة التـي يـضرب علوهـا السـماء وتلامـس السـحب المنخفضـة، كانـت في انتظـاري.. (ولاء).. وبمـا تبقَّـى مـن روحـي الميتـة رُحـت أُضاجعُهـا عـلى

النحـو الأبشـعِ والأكـثر ألمًـا.. تتـأوَّه فـوق الفـراشِ وتطلـبُ منِّـي المزيـدَ والمزيـدَ مـن الألمِ.. وحـين ظننـتُ أننـي انتهيـتُ هـذه المـرةَ، عـادت ولاطفتْنـي ثـم أشـعلت النـار فيَّ مُجَـدَّدًا.. ومُجَدَّدًا.

أخـيرًا انتهـى نضالُنـا المُحـرَّم، وكلانـا أعلـن استسـلامَه للآخر دون رابـحٍ أو خـاسرٍ حقيقـي.. بعدهـا تمطَّعـت مثـل قطـةِ شـيرازٍ فاخـرةٍ ولثمتنـي بقُبلـةٍ أخـيرةٍ عـلى صـدري ثـم نهضـت تجـرُّ سـاقهَا بإنهـاكٍ.. رميتُهـا ثقيلـةً في أذنِهـا:

- آخر مرة.

لم تلتفـتْ.. اتخـذتْ مجلسًـا أمـام التسريحـةِ تتأمـلُ جسـدَها الشـاهقَ العـاري، وحُبيبـات عَرَقـي الـذي مـا زال يلتصـقُ فوقَهـا.. تناولـتْ سـيجارةً طويلـةً لامعـةً تنتمـي لواحـدةٍ مـن المـاركات المسـتوردةِ ثـم أشـعلتهَا.. وأشـعلتني معهـا.

ببـطءٍ سـحبتْ نفسًـا عميقًـا تابعتـه في انتظـار أن تُخرجـه لكنهـا احتفظـتْ بـه.. أمسـكتْ ثديَهـا الأيمـن وراحـت تتحسـسُ اسـتدارَته، ثـم رفعتـه قليـلًا كمـن تُحـاول أن تُقيِّـمَ وزنَـه.. امتعضـت قائلـةً:

- بقى أتقل من الأول.. مش كدا؟!

نظـرتُ نحـوه.. تأملتـه للحظـةٍ.. لم يخطـرْ ببـالي شيءٌ كهـذا مـن قبـل.. فقـط كانـت تُعجبنـي اسـتدارتُه وعِنبتـه المسـكرة.. سألتها:

- سليكون؟!

أومأت برأسِها وهي تُراقبني من المرآةِ:

- آه.. عاجبك؟

هـززتُ رأسِي بـلا اكـتراثٍ.. أودُّ إخبارَهـا بـأن هـذا الجـزء فقـد رهبتَـه منـذ فـترةٍ طويلـةٍ وتحديـدًا حينـما زال غطـاؤه الشَّـفافُ ووضحـت ترهُّلاتـه.. هنـاك مـن أخـبرني يومًـا أن ثـدي المـرأة لم يكـن مـن شـظايا الإغـراءِ في المـاضي إلا بعدمـا تمـت تغطيتُـه.

ابتسمت ابتسامةً ذات مغذى:

- مردتش عليا!

تُصمِّـم عـلى إزعاجـي.. أعلـمُ أنهـا مُغرمـةٌ بقوامِهـا إلى حـدِّ الهَـوَس.. أشـحتُ لهـا في ضيـقٍ:

- إنـت مسـمعتيش أنـا كنـت بقـول إيـه؟!.. إحنـا عـلى كـدا و stop

ثـم نهضـتُ بكثـيرٍ مـن الغضـب.. اتجهـتُ نحـو النافـذة لأفتحها قبـل أن أتذكـر أننـي مـا زلـتُ عاريًـا.. عُـدت للداخـل غـير عابـئ بضحكتهـا السـاخرة وليـدة بيـوتِ الدعـارة..

يـدي لامسـت روبًـا حريريًّـا أهدتـه لي سـابقًا.. ارتـداؤه الآن هـو إعـلانٌ أن كل شيء عـلى مـا يُـرام.. بالطبـع كل شيء كان عـلى أسـوأ مـا يُـرام.. انتقيـتُ روبًـا آخـر وأنـا ألمـحُ خيبتهـا مـن طـرفِ عينـي.. قالـت مدافعـةً:

- إنت كل مرة بتقول كدا.

- المرة دي أنا بتكلم جد..

تركـتْ خُصلـةً مـن شَـعْرها تسـقطُ عـلى عينيْهـا دون أن تُعيدَهـا كـما اعتـادت، وقالـت بعدمـا استشـعرتْ جدِّيتـي:

- مالك يا مجدي.. فيه إيه؟!

- افهميني.. دي نهايتنا سوا.

- نهايتنا؟!

- أنا مخنوق.. مخنوق من كل حاجة حتى من نفسي..

- ومني أنا كمان؟

أصابـع يدهـا البـاردة تتحسَّـس كتفـي.. تركـتُ صمتـي يُجيبهـا.. عـادت وأكملـت بنعومـةٍ:

- إنت زعلان مني في حاجة.. لو على موضوع الجواز، خلاص مش هفاتحك فيه تاني..

امتعضتُ.. دفنتُ قولَها مع رُوحي الميتة.. لم يكنْ ولن يكونَ هذا هو السبب..

فتحتُ النافذة لتستقبلني أسطحُ المدينة الحسنة فبدت أشبه بكائنٍ أسطوري عملاق..

نظرتُ إلى لافتةٍ إعلانيةٍ برَّاقةٍ تحتلُّ سطحَ العمارةِ المواجهةِ، وتُنيرها مئاتُ اللمبات ترتعشُ أضواؤها وتتوهَّج، ثم تتلوَّى كمن يُنذر بالشرِّ.

تحتضنُني ولاء من الخلف وتلثمُ عُنقي بقُبلةٍ.. تتحكم فيَّ مثل شخصٍ أخرق لعين.. تشلُّ تفكيري لثوانٍ.. لا تجعلني أفكر بشكلٍ سليمٍ.. اتخذت قرار الابتعاد بصعوبةٍ وها هي ذي تُثنيني عنه بسهولةٍ..

وددت لو استطعت أن أصرخ فيها بكلمةٍ واحدةٍ: اخرسي!.. نعم اخرسي.. والآن!.. لكني لم أقولها.. لم تتحرك بها شفاهي التي أنهكتها القُبل.. القوةُ هي أن تمتلكَ القدرةَ على الفعل وقطعًا أنا لا أملكها.

أتركُ لها زمامَ الأمرِ هذه المرة.. جولةٌ أخرى وآهاتٌ أخرى فوق فراشٍ ملعونٍ.. نعم هو أثقل مما ينبغي..

يُمكنني أن أخبركَ بذلك بكلِّ وقاحةٍ.. لا تقلقي.. فلم يعد ذلك يُثير اهتمامي.. للعلم أعتقد أنك تحتاجين إلى عملية تجميلٍ أخرى، لكن في منطقةٍ مُحرمةٍ.. لا تضحكي!.. أنت تعلمين مدى جدِّيتي في تلك الأمور.

تركتها بعد ذلك تغطُّ في نومٍ عميقٍ وقد أنهكهَا الشبقُ فلم تشعر بي حين تسللتُ من منزلها خلسةً كلصٍّ يبحثُ عن الستر.

في الأسفلِ التقتْ عيناي مرةً أخرى بالمرأةِ الفقيرةِ وهى لا تزالُ تمدُّ يدَها للمارَّة وتدعو للمُحسنين كما دعت لي بطول العمر.. وراحة البال..

لا توجد راحة بال على الأرض..

هكذا صرتُ مُتأكدًا حين ورَدني اتصالٌ من رئيسِي يطلبُ مني الذهاب إلى السجنِ العُمُومي..

كدتُ أن أسبَّه سبةً بذيئةً جدًّا لولا أن أمسكتُ أعصابي.. نظرتُ في الساعة كانت السادسة صباحًا.. أجبتُه:

- الساعة ٦.. مش كان المفروض تعرَّفني من إمبارح..

ردَّ بـأن المصـور الأول المُكلـف قـد أُصيـب بإعيـاءٍ واعتـذر، وأنـه لا يوجـد غـيري للذهـاب مـن أجـل تغطيـة زيـارة لجنـةِ حقـوق الإنسـان إلى السـجن.

حاولـت أن أتملـصَ منـه وأتحجـج لكنـي لم أكـن قـد اسـتيقظت تمامًـا فخرجـت منـي كل الحجـج واهيـةً غـير مقنعـةٍ.

- شد حيلك.. عاوز ألحق الطبعة الأولى!

قالها اللعينُ وأغلق الهاتفَ في وجهي..

تنفسـتُ بحنـقٍ ثـم نهضـتُ مـن الفـراش.. صنعـتُ كـوبَ قهـوةٍ سـوداء وشربتـه في عجلـة.. ارتديـتُ سـترةً صوفيـةً ثقيلةً تحسـبًا لجـوِّ الصبـاح البـارد، ثـم نزلـت..

أمـام مدخـلِ العـمارةِ شـكرتُ نفـسي عـلى حُسـن ذكائي حينـما وجـدتُ الجـوَّ كـما توقعـت..

ركبتُ سيارتي مُسرعًا وانطلقتُ..

استغرقتْ رحلتي ثلاث ساعاتٍ كاملةً حتى وصلتُ..

بعـد المراجعـةِ الأمنيـةِ والتأكـد مـن شـخصيتي كنـتُ قـد وصلـتُ إلى حجـرة مأمـور السـجن..

اســتأذنتُ في الدخــول مــن أمــين الشرطــة القابــع أمــام البــاب والــذي نظــر لي بقــرفٍ شــديدٍ حــين أخبرتــه أننــي صحفــي..

في داخـل الحجـرة كان يجلـسُ المأمـور عـلى مكتبـهِ مُنتفـخ الأوداج وعـلى وشـك أن يطـيرَ للسـماء مـن فـرط إحساسـه المُفـرط بالعظمـة..

في مواجهــة المأمــور كان يجلــسُ أفــرادُ لجنــة حقــوق الإنســان.. كانــت اللجنــةُ مكونــةً مــن ثلاثــة رجــال وامــرأة.. الثلاثـة رجـال كانـوا في مرحلـة الكهولـة وعـلى وشـك المـوت.. المــرأة تقــتربُ مــن ســنِّ اليــأس وتُخفــي وجههَــا المُســتطيلَ خلــف طــنٍّ مــن مســاحيق التجميــل..

مــن المفــترض أنهــم شــخصياتٌ عامــة معروفــةٌ لكــن في الحقيقـة لم أتعـرف عـلى أحـدٍ منهـم.. لا أعلـم إن كان ذلـك جهـلًا منـي أو أنهـم فعـلًا أشـخاصٌ مجهولـون.

مــددتُ يــدي أُصافــح المأمــورَ أولًا الــذي صافحنــي بيــدٍ بــاردةٍ وأشــار لي بالجلــوس..

ابتســمتُ في وجــه الثلاثــة كهــول وصافحتهــم بسرعــةٍ فائقـةٍ قبـل أن أحتـوي كـفَّ المـرأة بـين يـدي.. وحـين لامسـتْ يـدي يدهـا، أدخلـتُ سـبابتي في باطـن كفهـا برفـقٍ وابتسـمتُ

لهـا.. ارتفـع حاجباهـا في دهشـةٍ عندمـا فعلـتُ ذلـك.. لكنهـا دهشــةٌ مصطنعــةٌ.. أرى الشــبق في عينيْهــا.. كانــت امــرأةً عريضـةً لكـن سـاخنة جـدًّا.. تسـتهويني مثـل تلـك النسـاء.

- إنت جاااااي تهزَّر..

قطـع سـيلَ أفـكاري صراخُ المأمـور.. في البـدء أجفلـتُ في مـكاني وظننـتُ أني المقصـودُ فكـدت أن أزلَّ بلسـاني مدافعًـا عـن نفـسي بـأيِّ هُـراء، لكـن لاحظـت بسرعـةٍ أنـه يتحـدث في هاتفـهِ ويُهـدِّد ويتوعَّـد (ابـن كلـب) مثلـما راح يدعـوه عقـب كلِّ سـبَّةٍ..

حـين انتهـى المأمـورُ مـن هـذا الــ (ابـن كلـب) ابتسـم في وجوهِنـا مُحـاولًا أن يبـدو سـمحًا رقيقًـا، وقـال بحـبٍّ:

- ناس ولاد كلب..

ثم حوَّل وجهَه نحوي:

- إنت اللي الجرنال باعتك؟

- مضبوط يا باشا.

أجبتـه، وأنـا أجـري ببـصري فـوق سـاق المـرأة الأملـس متمنيًـا أن أصـلَ إلى منبتـهِ الطـري.

- ليا كلام معك في الآخر..

قالها بصرامةٍ شديدةٍ، فابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ وحاولتُ أن أبتسمَ مُحاولًا اصطناع الثقة فلم أستطع..

تناول المأمورُ قُبعته التي يتوسطها النسرُ الذهبي ووضعها تحت إبطه وأشار إلينا:

- اتفضلوا يا بهوات!

ثم اقتادنا إلى عنابر السجنِ يتقدمه كرشُه الضخم، شارحًا لنا النظامَ المعمولَ به وجزءًا من لوائح مصلحة السجون التي تُشدد على أهمية احترام حقوق الإنسان، وكيف أنه يبذلُ قصارى جهده من أجل ذلك، وإلى أيٍّ مدى يُحب المساجين السجن؛ لدرجة أنه قصَّ علينا قصةً عن أحد المساجين وكيف بكى يوم خروجه بعد انقضاءِ مُدته..

قامت اللجنةُ بإجراء بيانٍ استقصائي وسؤالِ بعض المساجين عن أحوالهم، بينما مارستُ ما جئتُ من أجله والتقطت بعض الصور السريعة مُحاولًا أن أبدو كمحترفٍ حقيقي..

بعد ذلك ذهبنا إلى حوش السجن حيث لم نفعل شيئًا سوى الاستماعِ لنكات المأمور، ثم مررنا على قاعة الطعام وتفقدنا نوعية الأكل.. في الحقيقة كان كل شيء يبدو

رائعًا وجميلًا.. الضباط في غاية الطيبة، المساجين في غاية السعادةِ.. الطعام فراخ مشوية وسلطة بابا غانوج.. كادت عيناي تدمعان من فرط النفاقِ والكذبِ المفضوح.

تناولنا الفراخ المشوية وللأمانة كانت لذيذةً جدًّا بحيث أنستني تعب اليوم كله.. علمت فيما بعد أن مَن طهاها أحد المساجين وكان يعملُ في مطعمٍ سياحي واتهم بطبخ لحم الحمير..

حين انتهينا من الجاتوه طلب مني المأمور أن أريه الصور التي التقطتها قبل أن أقوم بنشرِها.. كان يخشى أن أكونَ قد التقطت صورة لا تروقه.. أخبرته أنني أحتاجُ إلى مكانٍ خاص لأتمكنَ من فرزها أولًا.. طلب مني أن أذهبَ إلى مكتبه.. ابتسمتُ في وجههِ بسماجةٍ، وذهبتُ..

في طريقي جاءت معي المرأةُ بعدما تعللت بأنها نسيت تليفونها..

سرنا معًا يتبعنا عسكري يُخفي ورك دجاجةٍ داخل بنطالهِ.. قبل أن ندخل مكتب المأمور ناولته علبة سجائري فتلقفها مني في سعادةٍ.. طلبت منه أن يأتي لنا بفنجانيْ قهوة وناولته عشرة جنيهاتٍ.. طار من أمامي مسرعًا كالحمامة ليُحضرَ ما طلبتُ.. غمزتُ للمرأةِ وسحبتُها للداخل.

- أنت وقح..

قالتها.. لكنها لم تعنيها..

- بس لذيذ..

هكذا رددتُ عليها..

وفـوق مكتـب المأمـور مارسـنا الحـبَّ كـما أُنـزل.. كانـت كـما توقعـتُ.. (رائعـة).. شـفتاها رطبتـان.. بشرتُهـا ناعمـةٌ.. تضاريـس جميلـة وصغـيرة.

فجـأةً.. دخـل علينـا العسـكري.. تسـمَّر في مكانـه.. سـقطت منـه صينيـةُ القهـوة عـلى الأرضِ في دويٍّ مُزعـجٍ.. ورك الدجاجـة أيضًـا سـقط..

جحظت عينا المرأة وتجمَّدت حتى ظننتُ أنها ماتت..

بسرعـةٍ شـديدةٍ ارتديـتُ بنطـالي وعدَّلـت لهـا ملابسَـها، ثـم جذبتُهـا معـي للخـارج.

- مـش ضروري القهـوة.. بـس امسـح الـلي اندلـق عشـان المأمـور ميزعقـش..

قلتُها للعسكري وأنا أربت على كتفه.. ثم استطردتُ:

- الورك وقع الأرض..

وطرتُ من أمامهِ بسرعةِ الصاروخ.

ـ أنا هويدا.. إنت اسمك إيه؟

سألتني، وهي تُحاول اللحاق بي.. لم أشأ إخبارَها.. قلتُ:

ـ وهيفيدك اسمي بإيه..

ابتسمتْ:

ـ طيب، هشوفك تاني؟

تركتُها أمام بوابة الخروج، وأنا أُجيب:

ـ سيبيها بظروفها..

ثـم اسـتدرتُ عائـدًا لغرفـة المأمـور دون أن ألتفـت نحوهـا أبدًا.

أثنـاء عُبـوري حـوش السـجن اسـتوقفني مسـجونٌ يرتـدي البذلـة الزرقـاء.. كان أسـمر الوجـه، هزيـلَ الجسـم، قصـيرًا إلى حـدٍّ مـا.. تكلـم بصـوتٍ مُرتعـشٍ خافـتٍ:

ـ مساء الخير يا أستاذ..

قلتُ بحذر:

ـ مساء النور..

ـ أنا (حسن)

ثـم أخـبرني أنـه مسـجونٌ في قضيـة سرقـة.. كـدت أتركـه حـين قـال ذلـك.. لكنـه أخـبرني أنـه فعلهـا بدافـع الاحتيـاج لعـلاج والـده. إذا مـا حاولنـا أن نصـف الإجـرام إلى أبيـض وأسـود، فهـذا الشـاب زُجَّ بـه في السـجن بدافـع جريمـة بيضاء.

أصغيـت إلى بقيـة حديثـه باهتـمامٍ عندمـا قـال بصـوتٍ حزيـنٍ:

- أبويـا مـات النهـاردة.. وللأسـف إدارة السـجن رفضـت توافـق لي أن أحـضر جنازتـه بسـبب زيـارة اللجنـة..

لم أجـد لـديَّ ردًّا عـلى كلامـه، فاكتفيـتُ بالصمـتِ.. أخـبرني أنـه يخـشى ألا يُلاقـي والـده الاحـترام الـكافي أو اللائـق عنـد دفنـهِ، ثـم قـال لي بلهجـةٍ مُتوسـلةٍ:

- ممكن تروح مكاني؟

كان الطلب صعبًا.. لا أعرفُ لماذا اختارني:

- شكلك طيب وابن حلال..

هكـذا فـسَّر لي حينـما سـألتُه عـن سـببِ اختيـارِه لي.. وددتُ أن أرفـضَ.. أنـا لا أمتلـكُ الشـخصيةَ القـادرةَ عـلى التـصرُّف في مثـل تلـك المواقـف.. لكـن كلمـة لا كانـت ثقيلـةً فلـم أسـتطع قولهـا:

- حاضر.

احتضنني، وكادت دموعُه تُغرقني مثلما أغرقتْ وجهَه..

خرجتُ من السجن، وتوجَّهتُ مباشرةً إلى العنوان بعدما أرسلتُ الصور بالإيميل إلى الجريدة..

وصلتُ بعد ساعةٍ ونصف من القيادة المتواصلة.. صرتُ مرهقًا من كثرة القيادة هذا اليوم.

توقفتُ أمام المنزل.. كان العثورُ عليه سهلًا.. يكفي أن أسمعَ صوتَ القرآن الذي يخرجُ من كاسيت قديمٍ، وأشاهد صوانًا صغيرًا لأعلمَ أنني في المكان الصحيح..

صعدتُ مُسرعًا وسلَّمتُ على الموجودين بودٍّ شديدٍ.. أخبرتهم أنني صديق حسن وقد أوكلني بكلِّ ما يلزم، فاستراحوا جميعًا وتنفَّسوا الصعداء كأنني أنقذتُهم من ورطةٍ كبيرةٍ..

أخبروني أن من المهم أن أتواجدَ أثناء الغُسل.. كنتُ أعتقدُ أن الأمرَ يقتصرُ على تشييع جثمان ودفع بعض الأموال، لكن الموضوع كان أكبر.. أخبروني أيضًا أن الميت كان يعملُ في أمور السحر والجن وله الكثير من الكرامات، لهذا يخشى الجميعُ الدخول. أعصابي انهارت حين علمتُ ذلك لكني حاولتُ أن أبدو هادئًا وواثقًا من نفسِي.. قرأتُ الفاتحةَ بصوتٍ عالٍ، ثم دخلتُ.

كان التغسيلُ يتم في غرفةِ النوم.. في الداخلِ لمحتُ المُغسل ومُساعده.. كان المُغسل رجلًا كبيرًا في السن تبدو أماراتُ الصلاح والتقوى على وجهه.. مُساعده كان شابًّا أحدب حاد الملامح، يُطيع كل ما يقوله المُغسل بلا نقاشٍ، لا يتحدث مُطلقًا، ويكتفي بإشاراتٍ من يده تعجَّبت لها قبل أن أكتشفَ فيما بعدُ أنه أبكم.

بعدما انتهيا من تجهيز الماء والأقمشة شرعا في العمل.. أخبرني المُغسل أن الرجلَ يُكفن في ثلاثة أثواب بيضاء من القطن، بينما المرأةُ تُكفن في خمسة أثواب.. لا أعلم فائدة ما أخبرني به إلا أنني أومأتُ برأسي مُتصنعًا الفهم والحكمة..

كان جسدُ المرحوم متصلبًا ولا يُمكن معه خلع ملابسه.. تحرَّك المُساعد بلا أدنى قلقٍ وناول المُغسل مقصًّا كبيرًا.. قام المُغسل بارتداء قُفازيْن على يديْه وراح يقصُّ ملابس الميت.. بدأ بالكُم الأيسر حتى وصلَ إلى الرقبة، ثم الكُم الأيمن حتى الرقبة أيضًا، بعدها قام بقلبِه على جانبِه الأيسر وسحب الملابسَ مع المحافظة على سترِ العورة..

ثم راح يعصرُ بطن الميت برفقٍ ثلاث مرَّاتٍ ليُخرج الموجودَ به، وقام بغسل قُبله ودُبره بالماء الذي أخذ ينسابُ عليه من إناءٍ نُحاسي يحمله مُساعده..

عنـد ذلـك كـدتُ أفـرغُ مـا في معـدتي.. تناولـتُ مُصحفًـا وانشـغلتُ بالقـراءة فيـه عـلى صـوت صـبِّ المـاء فـوق الجثـمان.. حـين انتهيـا، طلبـا منـي أن أنـادي النـاس:

ـ كلنا لها..

قالهـا المُغسـل وهـو ينظـرُ للجثـةِ الملفوفـةِ في الكفـن مثـل نظـرة الرَّسـام للوحتـهِ.

كان الليـلُ قـد تجـاوزَ ثلثـه الأول حـين انتهينـا مـن الدفـنِ ثـم دخلـت إلى محـلٍّ وجبـاتٍ سريعـةٍ في طريـقِ عـودتي..

وتجـاوز ثلثـه الثـاني حـين هرعـت وأنـا ألـف ذراعـي المجـروح بقطعـةِ قـماشٍ مُتلفتًـا حـولي في ذعـرٍ قبـل أن أركـب سـيارتي.

في الطريـقِ توقفـتُ بعـد ذلـك أمـام صيدليـةٍ ابتعـتُ منهـا علبـة (فاليـوم)[1] ثـم وصلـتُ إلى شـقتي الصغـيرة القابعـةِ بالـدور الثالـث بعـمارةٍ حديثـةِ الإنشـاء، اشـترتها لي ولاء منـذ عـامٍ ونيـف.. هديـة، مكافـأة.. سـمِّها كـما شـئتَ، فالمُسـمياتُ لا تعنينـي.

---

(١) الفاليوم: دواء يُستخدم لعلاج: القلق، الأرق، الألم

في الداخـل سـكبتُ عـلى وجهـي نصـف زجاجـة برفـان لأزيـلَ عنـي رائحـةَ المـوت.. تحـترقُ عينـاي قليـلًا قبـل أن تغـدو الرائحـةُ معدومـةً..

نظـرتُ في المـرآةِ الكبـيرةِ التـي تعلـو حـوضَ الوجـه.. أفحـصُ عينـيْ انسـحبتا إلى الداخـل ووجهًـا أسـمر مُمتقعًـا حفرتـه تعاريـجُ الزمـن.. خيـطٌ مـن الشِّـيب تخلَّـل حلقـات شَـعر رأسِي.. لم أكـن كبـيرًا في السـن إنْ كنـتَ تهـوى معرفـة الأعـمار، كـما أننـي لسـتُ مفتـولَ العضـلاتِ، ولكننـي قـادرٌ إلى حـدٍّ مـا عـلى أنْ أخـوضَ قتـالًا وأتحمَّـل اللكـماتِ.. لا يُوجـد في حيـاتي مـا يُمكـن أنْ أذكـره.. لم أحقـق نجاحًـا أو إنجـازًا يسـتحق الذِّكـر في حيـاتي.. فقـط هـي سـنون تمـضي وأخـرى تعـبرُ ومعهـا فعلـتُ كلَّ مـا يُمكـن فِعلـه.. أكلـتُ.. ضاجعـتُ.. لهـوتُ.. مـاذا أيضًـا.. مـاذا يسـتحق الحيـاة مـن أجلـه بعـد ذلـك.. فقـد كل شيء قُدسـيته وجمالَـه وصـار ماسـخًا قبيحًـا.. لم يتبـقَّ أمامـي سـوى ظـلام الليـل والأفـكار.

أفكـرُ في المـوتِ.. الانتحـارِ بمعنـى ثـانٍ.. قـد أجـدُ جديـدًا.. حكايـةً أخـرى.. سردًا مختلفًـا.. وربمـا.. ربمـا، أنثـى جميلـة لم أزرهـا بعـدُ.. ابتسـمتُ حـين ورد إلى ذهنـي ذلـك.. رحلـة المـوت مـن أجـل أنثـى.. اسـم يصلـحُ لفيلـمٍ تِجـاري بحـتٍ.

نظـرتُ نحـو علبـة (الفاليـوم).. ابتلعـتُ ريقـي.. النـداء المجنـون يطـرقُ بـاب عقـلي ويـصرخُ بتوحُّـشٍ، افعلهـا، ضـعْ كلَّ مـا تبقَّـى مـن حبـوبٍ في يـدك واقـذفْ بهـا في فمـك.

ابتلعـتُ حبتـيْن دفعـةً واحـدةً.. ربمـا بقيـة العلبـة كفيلـةٌ بتحقيـق موتـةٍ هادئـةٍ لي.. لكنـي لـن أمـوتَ فـوق فـراشي كرجـلٍ بائـسٍ يتـم اكتشـافُ جثتـه حينـما تفـوحُ رائحتُهـا.. هـذه مهانـةٌ لا أقبلهـا لجسـدي حتـى وإن كنـتُ لـن أكـونَ شـاهدًا عليهـا..

طوَّحتً بقية العلبة بعيدًا..

اقتربـتُ مـن النافـذةِ المفتوحـةِ التـي راحـت تنقبـضُ وتنبسـطُ عـلى نحـو متواصـلٍ.. لا أعلـم إذا مـا كنـتُ أترنـح حقًّـا أم أنـه فقـط شـعورٌ كاذبٌ واسـتجابةٌ عكسـيةٌ لمفعـول الفاليـوم.

وقفـتُ عـلى حافـة النافـذة.. تضربُنـي نسـمةُ هواء بـاردةٌ.. الليونـةُ قبـل الصفعـة.. القفـزُ لم يكـن يومًـا مـن هوايتـي.. بقعـة دم وأشـلاء في منتصـف الشـارع مُغلفـة بسـيرةٍ قـذرةٍ سـتغدو كل مـا يذكـره النـاس عنـي..

لا بد لشريط ذكرياتي أن يمرَّ سريعًا أمام عيني..

المَشاهدُ تأتينِي منه متقطعةً بالأبيض والأسود.. لا يُمكن لأحدٍ أن يفهمَ كُنهها سواي، لكن قبل أن تنتهي حياتي أردتُ أن أبوحَ بشيء.. صحيح أنني أقفُ في مكانٍ لا يُوجد به صريخ ابن يومين أو حتى ثلاثة أيام، لكني فقط أريد البوْح..

رفعتُ صوتي عاليًا وأخرجتُ كلَّ ما يحيكُ في صدري..

صرتُ الآن مُستعدًّا للموت..

رفعتُ وجهي إلى السماء وأرخيتُ جسمي.. فجأةً.. انسحب الدم كله من عروقي وضرب في قمةِ رأسي ثم سقطتُ.

الفَصْلُ الثَّانِي

قبضـةُ صقيـعٍ ضربـت وجهـي فاسـتيقظتُ عـلى إثرهـا.. ألقيــتُ ســبةً بذيئــةً جــدًّا وأنــا أرى ولاء تحمــلُ في يدِهــا زجاجـة مـاء مُثلجـةً فارغـةً حتـى المنتصـف.. مسـحتُ المـاء الـذي علـق عـلى وجهـي، بينـما قالـت وهـي تتخـذ مقعـدًا في مواجهتــي:

ـ أنا فكَّرتك مُتّ.

نهضـتُ مـن عـلى الأرض وأنـا أحـرِّك عنقـي ذات اليمـين تـارةً وذات الشــمال تـارةً أخـرى مُهشِّــمًا الكتــلَ الأســمنتية التــي جمَّدتــه.. أجبتُهـا:

ـ والنعمـة المـوت ده عبيـط.. عـمَّال ياخـد النـاس الحلـوة وسـايبني..

- إنت عاوز تموت؟!

- آه.. ما تيجي تموتي معايا!

نظرتُ إلى يدي المجروحة، فحاولتُ أنْ أخفيها بطريقةٍ عفويةٍ.. سألتْ:

- إيه اللي عورك؟

- مفيش.. كنت بعمل سلطة والسكين عورتني..

ثم تركتُها وذهبتُ لأخرجَ كل قذارة البشرية.. حين عدتُ من الحمَّام كانت قد انتهتْ من إعداد وجبة إفطارٍ على غير عادتها.. اكتفيتُ بكوب قهوة سوداء مع سؤالٍ لها:

- خير؟!

اقتربتْ مني بليونةٍ، ثم أحاطتني بذراعيْها:

- أكيد خير يا مجدي.

ثم أخبرتني أنها ترغبُ في زيارة أهلها.

كانت ولاء متمردةً منذ صغرها.. فرسة جامحة.. ذكية.. تُحبُّ كلَّ ما هو جديدٌ ومختلفٌ.. رأى أبوها أن كل ذلك لا يليقُ بابنته التي تعيشُ مراهقتها ومؤشرٌ خطيرٌ على سُمعتها فيما بعدُ. لذا، وعملًا بنصيحته قامت الأم بإخراج

ولاء مـن مدرسـتها الثانويـة وأغلقـت عليهـا تمامًـا، فمُنعـت مـن الخـروج أو زيـارة الأصدقـاء.. كان ذلـك أمـرًا مؤلمًـا وقاسـيًا بالنسـبة لهـا.. ولأن كل شيء مُقـدر لـه أنْ يحـدث فهـو يحـدث، لـذا فقـد هربـتْ مـن المنـزل وتركـتْ خلفهـا رسـالةً تعتـذرُ وتـشرحُ لهـم الأسـباب.. حـين وصلـت القاهـرة وبعـد أن ذهبـت سـكرةُ ونشـوةُ الهـرب أدركـت أي مـأزقٍ أوقعـت نفسَـها فيـه.. فكَّـرت أنْ تعـودَ أدراجَهـا، لكـن نهايـة فيلـم (دعـاء الكـروان) لا تـزال تتذكرهـا.. مـن حُسـن الحـظ أنهـا كان لديهـا كل المؤهـلات التـي تُمكنهـا مـن النجـاح في مجتمعنـا الشرقـي.. **مؤخـرةٌ** سـمينةٌ.. صـدرٌ ناهـدٌ.. بـشرةٌ بيضـاء كالحليـبِ.. وكل هـذا مُغلـفٌ بسـلوفان مـن الرقـةِ والـدلال..

في البدايـة عملـت في مطعـمٍ صغـيرٍ، وانتقلـت منـه إلى بوتيـك ملابـس حريمـي لينتهـي بهـا الحـالُ في شـقق وأحضـان رجـالٍ مُختلفـين.. صنعـت ثـروةً جيـدةً ثـم بعـد فـترةٍ أصيبـت بمـرضٍ في الـدم كادت أن تفقـد معـه حياتَهـا.. بعـد أن شُـفيت ذهبـت للحـج وكرَّسـت نفسَـها للتعبـد.. أخبرتنـي أنهـا ظلـت ليـاليَ طويلـةً تبـكي تحـت أبـواب الكعبـة..

حين عادت من الحج افتتحت مصنعًا صغيرًا للملابس وتوقفت عن ممارسة الدعارة تمامًا.. آسف.. ليس تمامًا.. لم يسلم الأمر من بعض زبونٍ عابرٍ يحملُ الكثير من الرز، أقصد الكثير من الأموال.

التقيتها أول مرةٍ أمام بوابة مصنعها.. كنتُ وقتها ما أزال صحفيًا تحت التدريب، أعكفُ على تحقيقٍ صحفي لا أهمية له.. توطدتْ عَلاقتنا تدريجيًا، وفي اليوم الأول الذي تم تعييني فيه بالجريدةِ أصرَّت على أن نحتفل معًا.. لم أكن أتخيل أن احتفالي معها سينتهي بمواقعَتها داخل مكتبها ومن خلفنا كانت أصواتُ ماكينات الخياطة تُغطي على صوتِ تأوُّهاتها..

تذكَّرتُ كلَّ هذا حين أكملتْ قائلةً:

- وعاوزاك تيجي معايا..

- آجي أعمل إيه.. إنتي مجنونة؟!

- بُص يا مجدي.. أنا خرجت من بيتنا هربانة.. الحل الوحيدُ عشان يتقبلوني تاني، إني أرجع وأنا متجوزة.

ثم تقول لي إن والدها مات ولم تره.. وقد علمت أن والدتها مريضةٌ وترغبُ في رؤيتها فربما تكون المرةَ الأخيرة..

ترددتُ.. قلتُ:

- لكن موضوع الجواز إنتي عارفة رأيي من زمان.

- هنقولهم إنك جوزي بس.. ومفيش حد طبعًا هيقولنا إنه عاوز يشوف قسيمة الجواز..

فكرت.. نظرتُ في عينيْها.. التوسل والرجاء كانا يسبحان برفقةِ دموعٍ سالت فوق وجنتيْها.

- ماشي.. إمتى عايزانا نروح؟

هلل وجهُها:

- بُكره.

استدركتُ في كلامي سريعًا:

- بس ليا طلب!

نظرتْ نحوي مُتسائلةً وهي تمسحُ عينيْها:

- اللي إنت عاوزه..

- لمَّا نرجع.. تيجي ننتحر سوا!

أجابت دون تفكير:

- موافقة.. هفتح لك الشباك، ترمي نفسك منه، وأنا وراك علطول..

- إنتي بتهزَّري.. صح؟!!

- يعني أسيبك تهزَّر لوحدك يا حبيبي.

ثم وضعت يدَها على فمها لتُخفي ضحكتهَا.

اليوم التالي.. جاء سريعًا.. لا أعرفُ كيف.. فقط حين أشرقت الشمسُ انطلقنا معًا..

لم أكن أعلمُ الطريق جيدًا لكن بكثيرٍ من التكنولوجيا الحديثة المتمثلة في الخرائط الإلكترونية، وبقليلٍ من سؤال المارة اقتربنا على الوصول.. مرَرنا خلال ذلك على عدةِ مدنٍ مشهورةٍ لم أحلم يومًا بأن أدخلَها.

في الطريقِ عكفتُ مع ولاء على رسم سيناريوهات وحواراتٍ متعددةٍ حين لقاء الأهل.. ستكونُ هناك أسئلةٌ كثيرةٌ من نوعيةِ ماذا أعملُ حتى أبررَ ثمنَ السيارةِ الفارهةِ التي أقودُها والملابسِ الفخمةِ التي ترتديها ولاء.. أن أقولَ إنني لا أعملُ لهُو عارٌ بالتأكيد.. ربما حكاية عن نجاحي في تأسيسِ شركةٍ للاستيراد والتصدير هي الأنسبُ، سهلة الحكي وقابلة للتصديق.

قالت ولاء وهي تبتسمُ:

- عليًا النعمة إنت شكلك هتفضحنا!

- يعني لازم تقولي إن أهلك أصلهم صعايدة.. على كدا لو اكتشفوا إني مش جوزك رقبتي هتطير فيها.

أطلقت ضحكةً قصيرةً، ثم قالت:

- متقلقش.. أنا هكون معاك دايمًا..

لم أكن في حاجةٍ لسماع تلك الجملة الأخيرة، أعلم أنها يمكن أن تُقنع أي شخصٍ بما تقول.. لو أخبرتْ أحدهم أن الشمس لن تُشرق غدًا لصدَّقها.

علمت منها أن لها أخًا واحدًا يُدعى (طاهر)، وأن أمها تُدعى (راجية)، ثم راحت تحكي لي بعض التفاصيل عن قريتها.. من خلال كلامِها استطعت أن أكوِّنَ صورةً ذهنيةً ناقصةً عن شكل قريتها، لكن لم تكتمل تلك الصورةُ إلا حين وصلنا.. باختصار كانت قريةً مصريةً حديثةً أصابها عتَهُ القرن الحادي والعشرين فصارت مسخًا قبيحًا من المدنية والتخلف.

كنا قد وصلنا مع الدقائق الأولى لغروب الشمس.. توقفنا بالسيارة أمام منزلٍ كبيرٍ في نهاية القرية تحرسُه بوابةٌ حديديةٌ حديثةُ الصنع ويقع على أطراف القرية.. خلف المنزل مباشرةً لمحتُ وجه الشيطان!

كان المنـزلُ مُسـتطيلًا، أشـبه بعلبـة ثقـاب مكونـةٍ مـن ثلاثـة أدوارٍ، لـه بوابـةٌ حديديـةٌ حديثـةُ الصنـع، أظـن أنهـا قـد صُنعـت في فـترة الانفـلات الأمنـي إبـان ثـورة ينايـر.

طرقـت ولاء البـاب برويَّـةٍ، بينـما كنـتُ أقـفُ بجوارهـا مُرتبـكًا وأنـا أنظـرُ بـين الحـين والآخـر إلى التـل الأحمـر الكبـير الموجـود خلـف المنـزل بمسـافةٍ متوسـطةٍ نسـبيًّا.. أخبرتنـي ولاء أنهـم يُطلقـون عليـه وجـه الشـيطان..

أوشـكتُ أن أسـألها عـن سـبب التسـمية حـين فُتحـت البوابـة وظهـر مـن خلفهـا (ولاء أخـرى) أكلهـا الزمـنُ وألبسـها ثـوبَ العجـز ونظـارةً طبيـةً كعـب كوبايـة.

مـن المفـترض أن هـذه (راجيـة)، ومـن المفـترض أيضًـا أن تـصرخَ مـن الفرحـة أو الصدمـة أو حتـى تسـقط عـلى الأرض مغشـيًّا عليهـا حـين تُشـاهد (ولاء):

- إنتوا مين؟

سـألتنا بـبرودٍ شـديدٍ وهـي تجـولُ ببصرِهـا بيننـا.. هـذه ابنتـك أيتهـا العميـاء الحمقـاء.. أقسـم أننـي كـدتُ أقـول ذلـك لـولا أن اسـتبقتني ولاء:

- إزيك يا أمي!

اتسعت عينا راجية وارتعشت شفتاها.. نعم هذا هو ردُّ الفعل المطلوب.. أنا سعيدٌ الآن.. أكملت ولاء وهي تفتح ذراعيْها:

- أنا ولاء.

قالت راجية مصدومةً:

- ولاء مين؟

ثم صمتت واستمرَّت تنظر في وجه ابنتها غير مُصدِّقةٍ.. بعد لحظةٍ رددت وكأنها قد أفاقت من حلمٍ طويلٍ:

- ولاء!

واحتضنتها بشوق غياب السنين.. في الحقيقة كان مشهدًا تراجيديًّا لا يليق إلا بأفلام الستينيات.

انتظرت حتى انتهت كلتاهما من البكاء والنواح.. في تلك الأثناء أتى رجلٌ ضخمُ الجثة، يتصبَّب العَرقُ فوق جبينهِ ويرتدي ملابسَ داخليةً التصق فوقها ترابٌ أحمر، راح يُتابع ما يجري وهو يرفعُ حاجبَه بينما شفتاه تتلويان في ضيقٍ.. احتمالٌ كبيرٌ أن يكون هو أخاها (طاهر).. واحتمالٌ ضئيلٌ أن يكون زوج أمها.. تمنيتُ في قرارة نفسي أن يكون الاحتمالُ الأخيرُ هو الصحيح حتى أرى الصدمة على وجه ولاء.. شرير أنا.

بالفعل كان هو..

- طاهر..

احتضنتــه ولاء وهــي تنطــقُ باســمهِ، فاســتقبلها بــترددٍ جعلهـا تكتفـي بعـد ذلـك بقُبلـة عـلى خـدِّه وهـي تسـأله:

- عامل إيه؟

- في نعمة كبيرة.

التفت نحوي مستفسرًا في صمتٍ:

- مجدي.. جوزي..

أجابتــه ولاء بسرعــةٍ.. صافحتُــه بقــوةٍ وأنــا أنظــرُ إليــه بطــرف عينــي مُحــاولًا أن أبــدو واثقًــا.

راجيــة جذبــت معهــا ولاء إلى الداخــل دون أن تلتفــتَ نحــوي مــما أشــعرني أنهــم قــد نســوني..

سرتُ خلفهـم فعبرنـا في البدايـة مدخـلًا ضيقًـا كالدهليـز حتــى وصلنــا إلى صالــةٍ مربعــةٍ تــم تنظيمُهــا مثــل "قعــدة عــربي" حيــث تغطــت الأرضيــةُ بحصــيرةٍ ملونــةٍ كبــيرةٍ ومــن حولهــا عــدة وســائد ومســاند إســفنجية عــلى شــكلِ دائــرةٍ مكتملــةٍ.. في نهايــة الصالــة لمحــت كمودينــو أثريًّــا عملاقًــا

بحجـم سـيارة وقـد تراصـت فوقـه الكثـير مـن المشـغولات الفضيـة والنحاسـية ذات الطابـع الفرعـوني.

بعـد ذلـك صعدنـا إلى الطابـق الثالـث حيـث سـنبيتُ تلـك الليلـة، وفي الصبـاح سـيكون هنـاك شـأنٌ وكلامٌ آخـر كـما أخبرتنـا راجيـة.. لم أجادلهـا فقـد كنـت مرهقًـا.. لكنـي فقـط تعجبـتُ مـن صعودنـا إلى الـدور الثالـث، مـن الطبيعـي والمعتـاد أن تكـون غرفـةُ الضيـوفِ في مواجهـةِ المدخـل أو حتـى في الـدور الأول ليتسـنَّى لأهـلِ البيـتِ التحـرك بحريـةٍ.

الـدور الثالـث كان عبـارةً عـن شـقة لهـا بـابٌ قديـمٌ مصنـوعٌ مـن الخشـب الـذي نخـره السـوسُ..

مـدَّت راجيـة يدهـا إلى صدرهـا وأخرجـت خيطًـا صغـيرًا ينتهـي ببضعـة مفاتيـح، انتقـت أحدهـا وأدارتـه في القفـل.. سـبقتنا في الدخـولِ ثـم أشـعلت النـور وأشـارت إلينـا بـأنْ نتبعَهـا..

اضطـررتُ إلى أن أحنـي رأسي حتـى أدخـلَ، فقـد كان البـابُ قصـيرًا لا يُناسـب شـخصًا طويـلًا مثـلي..

بمجـرد أن دخلـت أنـا وولاء حتـى أغلقـت علينـا راجيـة البـاب بسرعـةٍ وسـمعت صـوت المفتـاح وهـو يـدورُ مـن جديـدٍ داخـل القفـل.

- حبسونا!

قلتُها، وأنا أبتسمُ لولاء التي امتقعَ وجهُها.

- ربنا يستر!

بالفعل، ربنا يستر.. ما حدث الآن لا يُبشر بالخير.

بالنسبة للشقة التي احتجزنا بها، فقد كانت مترِبةً وجوُّها خانقٌ.. الأثاث بها قليلٌ وبسيطٌ إلى أقصى حدٍّ.. الجدران تقشَّرت ألوانُها وبهتت إلى حدِّ الضياع. أما السقفُ فقد سكنته الكثيرُ من العناكب والقليلُ من السحالي.

- شايفه السحالي يا ولاء.. دي سحالي حبنا!

اللعنة لم أفقد خِفة ظلي بعدُ.. قالت ولاء بحنقٍ:

- إنت هتهزر!

ثم دارت بسرعةٍ في كل الأرجاء وفتحت كل الأبواب وفي النهاية أشارت لي:

- أوضة النوم أهي.

وشرعتْ في ترتيب السرير وإزاحة الحشراتِ التي كانت تنامُ فوقه في سلامٍ، ثم دخلتْ في نومٍ مُتذبذبٍ؛ بينما قضيتُ الليل يقظًا من كثرة التفكير.

حين أقبل الفجرُ كنتُ قد أُنهكتُ جسديًّا وعصبيًّا..

نظرتُ إلى ولاء التي استيقظت شاحبة الوجه.. أخبرتني أنها حلمت حلمًا مُزعجًا.. حين سألتها عن فحواه، قالت إنها لم تعد تتذكره.. قرَّرت من الأفضل أن أبدو مُتفائلًا.. قلتُ بمرحٍ:

- أكيد هنفطر عسل نحل ومشلتت..

ابتسمتْ بمرارةٍ ولم تُجبْ.. أكملتُ قائلًا:

- ولدتك بخيلة ولا إيه!

قلتُها، ثم فتحتُ نافذة الغرفة لتطالعني بيوتُ القريةِ غير واضحةٍ في غبشةِ الفجر..

رأيتُ طاهر يخرج من المنزل مرتديًا جلبابًا أبيض بالكاد يصل إلى عقبيْه ثم يتوجه نحو المسجدِ للصلاة..

عدتُ للداخل مُستكملًا حديث التشاؤم مع ولاء..

بعد ساعةٍ تم إطلاقُ سراحنا، حيث جاءت راجية وفتحت لنا ودعتنا للإفطار..

وجدنا طاهر وقد سبقنا في الجلوس وقد رسمَ على وجههِ لوحة غضبٍ، وراح يلوكُ قطعة سريس في فمه..

ألقيتُ عليه تحيةً، ثم جلستُ على الطرف الآخر من المائدة..

أتت أطباقُ الطعام تحملها امرأةٌ في العقد الثاني من العمر، بيضاء، ممتلئة اللحم، بشوشة الملامح وترتدي جلابية بيت زرقاء.. علمت أنها (دلال) زوجة طاهر..

في البداية تناولنا جميعًا الطعامَ في صمتٍ وترقُّبٍ.. وأخيرًا تكلمت راجية وللعجب لم تأتِ على ذكر أو عتاب ولاء.. اكتفتْ بقولها:

- اللي فات مات.

ثم راحت تحكي لنا قليلًا مما مضى.. تُخبرني أنها تزوجت والد ولاء وهي في الخامسة عشرة كما هي عادة أهل القرية في تزويج بناتهم في سن صغيرة.. لم يكن والد ولاء شخصًا قاسيًا كما أخبرتني ولاء (هكذا قالت).

- ولاء مقالتش كدا..

وهكذا قلتُ أنا..

نظرت راجية إلى ولاء نظرةً مُعاتبةً، وكأنها واثقةٌ من أنها قالت ذلك، ثم عادت تُكمل.. قالت إن الحياة كانت ضنك وما يجنيه الأب لم يكن يكفي لمعيشة الأبناء، لهذا كان دائمًا ما يثورُ ويلعنُ كل ما هو موجودٌ، لكنه حين

يختلي معها كان يبدو مثل طفلٍ صغيرٍ.. كثيرًا ما أخبرها أنه يخشى على ابنته الكبرى فهي لا تزال غضَّةً وجاهلةً بهذا العالم القبيح.. ثم هربت ولاء.. عند تلك النقطة صمتتْ.. أطرقت ولاء برأسِها في الأرض.. قلتُ مُحاولًا تجاوزَ الأمر:

- وبعدين؟

أجابت:

- مبقاش قادر يرفع وشُّه في عين الناس.. اتكسر.

ثم حكت كيف بحث عن عقد عمل في الخليج هربًا من ضيقة العيش ثانيًا ومن كلام الناس أولًا.. لسوء الحظ لم يستطع العثور عليه إلى أن ساعده أحدُ الأقارب في السفر إلى ليبيا.. اشتغل هناك صيادًا فوق أحد مراكب الصيد حيث استطاع أن يدَّخر مبلغًا معقولًا من المال، دفعه فيما بعدُ لأحد المهربين لكي يتسلل إلى إيطاليا.. وفي إيطاليا عمل في مزرعة عنبٍ وتزوَّج من امرأةٍ مغربيةٍ، وأنشأ أسرةً ثم مات منذ سنواتٍ قليلةٍ ودُفن هناك.. بعد ذلك زارتهم زوجتُه المغربيةُ، واشترت لهم هذا المنزل الكبير مع قطعة الأرض التي يقومُ طاهر بفِلاحتها حاليًا، ثم غادرت بعدما أخبرتهم أن تلك كانت وصية زوجها لها وإليهم.

بعـد أن انتهـت راجيـة مـن حديـث الذكريـات، طلـب طاهـر أن يُحدثنـي عـلى انفـرادٍ.. لم أجـد سـببًا للرفـض.. سرتُ معـه إلى غرفـةٍ أخـرى.. نظـر وراءه حتـى يتأكـدَ مـن عـدم مجـيء أحـدٍ خلفنـا ثـم أغلـق البـاب جيـدًا.. صـار لديَّ شـعورٌ قـوي بأنـه ينـوي إيـذائي أو إجبـاري عـلى قـول حقيقتـي.. هـي لكمـةٌ واحـدةٌ منـه وبعدهـا سـوف أُخـبره بـكلِّ شيء.. عليـك اللعنـة يـا ولاء.. أقسـم أننـي سـوف أخـبره بـكلِّ شيء..

نظر نحوي بغموضٍ شديدٍ:

- مجدي!

- تحت أمرك يا طاهر بيه.

قلتُهـا وأنـا أحـاول أن أبـدو هادئًـا حتـى أمنـعَ الخـوفَ مـن التسـلل إلى صـوتي.. ثـم وبـلا سـابقِ إنـذارٍ احتضننـي.. الآن أنـا خائـفٌ كـما لم أخـف مـن قبـل.. هـل يظـن هـذا الأحمـق أننـي شـاذ؟!!.

- ألف ألف مبروك..

بعـد تهنئتـي عـلى زواجـي مـن ولاء، أخـبرني أنـه يشـعرُ بالفخـر والسـعادة لقدومـي، ثـم استرسـل بعـد ذلـك في كلامٍ هـو مزيـجٌ مـن الهـراء.. والهـراء!

الأيـام التاليـة مـرَّت عاديـةً بخـلاف أنهـم كانـوا يُغلقـون علينـا الشـقة بالقفـل، وكانـت الحكمـة في ذلـك كـما قالـت راجيـة هـي أن دلال أحيانًـا تخـرجُ لقضـاء بعـض مـن حاجتهـا، ومـن المشـين أن يطلـع عليهـا غريـبٌ مثـلي.. حجـةٌ واهيـةٌ لكنـي قبلتهـا عـلى مضـضٍ وبـلا نقـاشٍ منعًـا للإحـراج..

كانـت راجيـة امـرأةً متدينـةً تسـتيقظ مبكـرًا لتصـلي الصبـح ثـم تُمـارس بعـض الأعـمال المنزليـة المعتـادة إلى حـين اسـتيقاظ بقيـة أهـل البيـت.. كانـت تتذمـر كثـيرًا مـن كسـل (دلال)، لكـن وللحـق كانـت الأمـور بينهـما تسـيرُ بشـكلٍ مثـالي كـما يفـترض بـين حـماة مصريـة وزوجـة ابنهـا.. باختصـارٍ، كان الأمـرُ بينهـما جحيـمًا مُسـتترًا.

كنـت أمـضي معظـم وقـت النهـار برفقـة طاهـر.. كان طاهـر في أواخـر الثلاثينيـات مـن العمـر.. مربـع الوجـه، ضخم الجثـة، كثيـف شَـعر الـرأس والذقـن، أقـرب إلى أن يكـون دبًّـا بشريًّـا.. صوتـه مرتفـعٌ أثنـاء الحديـث، دائم السـباب والشـجار عـلى أتفـه الأسـباب.. في البـدء ظننتـه شـخصيةً سـمجةً شريرةً، لكننـي بمـرور الوقـتِ وبعـد صُحبتـه أيقنـتُ أنـه يملـكُ قلبًـا أبيـض مثـل الحليـب وشـخصيةً هشَّـةً يُحـاول إخفاءهـا وراء غلظـةٍ يصطنعهـا..

حـين كنـا نسـيرُ في وسـط الأراضي المزروعـة كان يتخـير منهـا مـزارع الفـول ثـم يدخلهـا ويخـرج منهـا بحفنـةٍ مـن الفـول الأخـضر، يحتفـظُ بهـا داخـل جيوبـه ويأكلهـا فيـما بعـد كالبغـلِ.. في البـدء تعجَّبـت واسـتنكرتُ لكـن بمـرور الوقـت رحـت أشـاركه فيـما يفعـل.. لم أكـن أتخيـل أن ذلـك الخضـار يحمـلُ هـذا الكـم الكبـير مـن البهجـة.

بالنسـبة لقضـاء اليـوم هنـاك فلـم يكـن بـه شيء مميـز.. كان مللًا في مللٍ.. ولاء تقـضي كل النهـار مـع والدتِهـا في حـين كنـتُ أعانـق الأريكـة وأتابـع مـا تعرضـه شاشـة التليفزيـون المملـة..

كان طاهـر يعـودُ في الثالثـة عـصرًا، ولم يكـن يتأخـر دقيقـةً واحـدةً عـن موعـده.. بعـد ذلـك نجلـس معًـا حـول مائـدة طعـام الغـداء.. طبيعـي أن يكـون البـط والإوز هـما الأطبـاق الرئيسـية في كل يـوم.. كان ذلـك أمـرًا مُبهجًـا وجميـلًا، وأيضًـا لذيـذًا.

حـول الطعـام كنـتُ أحـب أن آكلَ في صمـتٍ.. عـلى العكـس منـي كان طاهـر يُحـب الحديـثَ أثنـاء الأكل، كان يحـكي عـن كل شيء وأي شيء.. كنـت أسـتقبلُ حديثـه بهمهمـةٍ خافتـةٍ وأحيانًـا بضحكـةٍ بـاردةٍ إذا مـا قـال دعابـةً أو شـيئًا مـا غبيًّـا.

بعـد الغـداء كنـا نجلـسُ مـن جديـدٍ لنسـتمعَ إلى بقيـة حديـث طاهـر برفقـة أكـواب الشـاي المُعطـر بالنعنـاع.

عنـد حلـول المسـاء كنـتُ أخـرجُ برفقـة طاهـر وأجلـس معـه عـلى قهـوة بلـدي صغـيرةٍ تملكهـا امـرأةٌ تُدعـى (سـنية) بعـد أن ورثتهـا عـن زوجهـا الـذي قـضى نحبـه في السـجن بسـبب قضيـة حشـيش، والـذي هـو بـدوره كان قـد اشـتراها مـن أرملـة صاحـب القهـوة الأصـلي والـذي مـات أيضًـا نتيجـة انفجـارٍ في الزائـدة الدوديـة.

كانـت القهـوة تبعـدُ عـن المنـزل شـارعيْن وثـلاث بلاعـات لا بـد أنْ تنتبـه لهـا جيـدًا حتـى لا تسـقط في إحداهـا..

عـلى مدخـل القهـوة دائمًـا تجلـسُ سـنية وهـي ترتـدي جلبابًـا أسـود وتلـف رأسَـها بإيشـارب أخـضر مُطـرز تُتابـع كل مـا يجـري مثـل قائـدٍ حـربي يخـوضُ واحـدةً مـن معاركـه المهمـة..

عـلى الرغـم مـن أننـي جلسـتُ مـن قبـلُ في أماكـنَ أكـثر رقيًّـا فـإن تلـك القهـوة كان لهـا طابـعٌ جميـلٌ ودفءٌ شـعبي..

رواد القهـوة أغلبهـم مـن سـاكني المنـازل المجـاورة تعرفهم سـمية بالاسـم وبمشـاريبهم المعتادة.

عرَّفني طاهر على سنية فابتسمت في وجهي ابتسامةً عريضةً ذكَّرتني بتحية كاريوكا في فيلم شباب امرأة، ثم حيَّتني بحرارةٍ وأرسلت لنا زجاجتيْ حاجة ساقعة فئة الصاروخ مع صبي القهوة والذي يُدعى (سنفور) كونه يُشبه شخصيةً من شخصيات (السنافر).

كنتُ أجلسُ أنا وطاهر ما بين الساعة والساعتين نقضيهما في لعبةِ الطاولة أو الدومينو، وأحيانًا في متابعة المباريات المُشفرة.

على العاشرة مساء كنا نعودُ حيث نتناول العشاء بعدها يذهبُ الجميع للنوم.. كان هذا أمرًا مقيتًا بالنسبة لشخصٍ ليليٍّ مثلي.. في الليل كنت أُمارسُ الحبَّ مع ولاء رغبةً في تمضية الوقت ليس أكثر.

ما أن تخلد ولاء للنوم حتى كنتُ أقضي معظمَ الليل أتقلب على الفراش، أو أحدِّق في السقف، أو أقضم أظفاري.. باختصار كان هذا هو ملل الجحيم بعينه.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

- عاوزك تيجي معايا عرس واحد صاحبي..

كان أمـرًا جميـلًا أن يطلـب منـي طاهـر أن أذهـب معـه بعدمـا انتهينـا مـن تنـاول العشـاء.. وافقـت عـلى الفـور.. أخـيرًا سـوف أكـسرُ حالـة الملـل التـي أعيشُـها منـذ أن وطئـت قدمـاي هـذه القريـة..

صعـدت إلى الأعـلى فرحًـا لتغيـير ملابـسي مثـل طفـلٍ صغـيرٍ سـوف يذهـبُ إلى الملاهـي مـع والـده..

فوجئـتُ بـولاء تصعـد خلفـي بسرعـةٍ.. حذَّرتنـي مـن الذهـاب إلى هنـاك وطلبـت منـي أن أنـزل لطاهـر وأعتـذر له.. بالطبـع رفضـتُ.. كاد الموضـوع أن يتحـول إلى شـجارٍ عنيـفٍ معهـا لـولا أن تمالكـتْ هـي نفسَـها..

نزلتُ إلى طاهر يتبعني تحذيرٌ منها بأن ألتزم الأدب هناك وأن أغض بصري حتى لا أثير الأهالي.. تهكمت: "عزيزتي أنت تعلمين أن الأدب هو مرادف لاسمي".

في الأسفل وجدتُ طاهر في انتظاري وقد ارتدى جلبابًا بنيًّا فضفاضًا ووضع فوق رأسهِ عمامةً كبيرةً..

قامت دلال بإحضار مبخرةٍ كبيرةٍ وراحت تدورُ بها حول زوجِها وهي تُردد بعضَ الأدعية من الموروث الشعبي، لكن وعلى ما يبدو أن طاهر همس في أذنها بنكتةٍ قبيحةٍ فانطلقت تُقهقه بمياعةٍ لا تليقُ سوى بفتاة ليل.. حدجتهَا راجية بنظرةٍ كالرصاصة، وقالت:

- بالراحة.. وطِّي صوتك.. الجيران يقولوا علينا إيه!

نظرت لها دلال ببطءٍ، وهي تُحاول أن تكتم نفسها:

- يقولوا اللي يقولوه.. أنا بضحك مع جوزي..

قالت راجية وهي تُوبخها:

- أنا مبحبش ده..

مدَّت دلال يدَها ووضعتها حول صدرِ طاهر:

- جوزي..

كرَّرت راجية بغضبٍ:

- قلت مبحبش ده..

حاولت دلال أن تدخل معها في معركةٍ، لولا أن نفخ طاهر من أنفه كالخرتيت فالتزمت الصمت، بينما أشارت راجية إلى المبخرة:

- يلا كمِّلي!

وبإذعانٍ أمسكت دلال بالمبخرة وهي تُتمتم في سرِّها.. وحين انتهت خرجتُ أنا وطاهر..

توجَّهت نحو سيارتي، لكنه أشار لي بالانتظار ثم تركني واتجه نحو جراجٍ قديمٍ متآكل الجدران.. فتح بابه المصنوع من الصاج وغاب في الداخل طويلًا..

حين هممتُ بأن أُنادي عليه سمعتُ صوت فرقعةٍ أشبه بانفجار قنبلةٍ صغيرةٍ أعقبها هديرُ مُحرك سيارة، ثم خرج وهو يركبُ سيارةً صدئةً تجاوز عمرُها النصف قرن تقريبًا..

أشار لي بأن أركب بجواره.. فكَّرتُ أن ألعنه ثم أجري هربًا منه.. لو فعلتُ ذلك الآن لذبحتني ولاء.

فتحتُ باب السيارة فسقط مضاد الصدمات الأمامي من مكانهِ.. نظرتُ مُندهشًا.

- سيبه!

قالها وهو يضحك.

انتقيتُ مكاني بصعوبةٍ في المقعد المجاور له.. عبثًا حاولتُ بقدر استطاعتي أنْ أمنعَ حشراتٍ مُخيفةً أن تلدغني.. في الواقعِ كان الأمرُ أشبه بغزو .

عاد يضحكُ وهو يُزيح بعضَ البقِّ عن قفاه:

- هع هع هع.. إنت خايف من حبة بق!

رددتُ:

- بق!!

- حمارتك العرجة تغنيك عن سؤال اللئيم.

لا أعلم لماذا ذكر هذا المَثل.. قلتُ:

- أكيد اسمها زوبة..

ضحك مرةً أخرى:

- زنوبة.

- مين؟!!

- زنووووبه.. أنا مسمِّيها زنوبة.

- وماله.. أهو كله جنان.

ثـم تذكـرت أمـر الضجيـج الـذي أسـمعه كل ليلـةٍ، فسـألتُهُ عنـهُ.. لم يـردَّ بسرعـةٍ ورأيـتُ الأفـكارَ والأكاذيـبَ تنهـشُ في جبينــهِ.. قــال لي بعــد برهــةٍ إن الصــوت مصــدرُه بالوعــة الـصرف الصحــي التــي يقــوم بتنظيفِهــا كل مســاء، ثــم غــيَّر الموضـوع بسرعـةٍ وانتقـل للـكلام عـن الـزواج والأفـراح.. كان يمكــن أن أجادلــه وأقــوم بإحراجــهِ لكــن فضَّلــت أن أبتلــع كذبـه المفضـوح بـإرادتي.. عـلى الأقـل هـو لم يقـلْ إن هنـاك مخلوقــاتٍ فضائيــةً هــي التــي تُصــدر هــذه الأصــوات وإلا لكنــتُ أفحمتُــه.

أخـبرني أن سـن الـزواج يختلـفُ كثـيرًا عـن المـدن، فمـن تبلـغ الـ٢٠ عامًـا تُعتـبر في حُكـم العانـس، وفيـما مـضى كانـت هنـاك مغـالاةٌ رهيبـةٌ في المُهـور نتيجـة مـوروثٍ قديـمٍ مفـاده أن قيمـة ومكانـة العـروس وعائلتهـا يتحـددان بنـاء عـلى المهر، وأن ذلــك أدَّى إلى عــزوف شــبابِ القريــة عــن الــزواج مــن بناتهـا والاتجـاه إلى الـزواج مـن قـرى أخـرى، إلى أن جـاء أحـدُ مشـايخ الصوفيـة واقـترح أن يتـم تخفيـضُ قيمـة المهـور وتـم جمـع أعيـان البلـد والاتفـاق عـلى ذلـك.

في الحقيقــة لم أكــن مهتــمًّا بمــا يقــول، كنــتُ مُنشــغلًا في الفرقعـةِ التـي راحـت تصـدُر مـن السـيارة بـين الحـين والآخر..

بـلا شـك سـأموتُ اليـوم مُحترقًـا مـن السـيارةِ أو مشـلولًا بسـبب حديثـهِ.. لكـن فجـأةً رمـى قنبلـةً في أذني:

- والدخلة عندنا بتكون بلدي[1]..

ثـم ضحـك ضحكـةً طويلـةً حـين قـال ذلـك فامتقـعَ وجهـي بشـدةٍ.

- طخ.. طخ..

أطلـق طاهـر طلقتـيْن مـن طبنجـةٍ كان يُخفيهـا بـين طيَّات ثيابـه احتفـاءً بالعريـس الـذي راح يرقـصُ وسـط أحبابـه وأقاربـهِ بمنديـلٍ مُلـوَّثٍ بغشـاء بـكارة زوجتـه، والزغاريـد تتعـالى مـن حولـه..

كان هنـاك تناغـمٌ شـديدٌ بـين اللمبـات التـي تـم رصُّهـا بعنايـةٍ شـديدةٍ حـول منـزل العريـس..

---

(١) الدخلـة البلـدي: هـي عـادةٌ قديمـةٌ يتـم خلالهـا الاعتـداءُ الوحـشي عـلى الفتـاة بمعرفـةِ أهلهـا عـلي يـد خالتهـا أو عمتهـا بأسـاليبَ لا يُمكـن ذكرُهـا وعقـب فـضِّ غشـاء بكارتهـا يُلطخـون بـه قطعـة شـاشٍ ليأخـذوه لمـكان سـكنها مزغرديـن وصارخـين أن ابنتهـم شريفـة كي يخـرجَ الجميـعُ مـن منازلهـم في منتصـف الليـل ليـروا ذلـك المشـهد المُقـزز، تاركـين خلفهـم فتـاةً مُحطمـةً نفسـيًّا وجسـديًّا

كنـتُ أتابـعُ مـا يجـري مـن طقـوسِ الـزواجِ مُندهشًـا.. توقَّـف طاهـر عـن وصـف مـا يحـدثُ لي وتركنـي أتشـاجرُ مـع أفـكاري حـين سـلَّم عـلى رجـلٍ أسـود كالليـل لـه لحيـةٌ مثـل لحيـةِ الجَـدْي ويعـرجُ عـلى سـاقٍ خشـبيَّةٍ.. اسـمه (عثـمان) وشـهرته بـين الجميـع (هتلـر)، وكان يعمـلُ نجـار مسـلح وحاليًـا هـو مقـاول عـمَّال كـما أخـبرني طاهـر..

ابتسـم هتلـر حـين لاحـظ نظـرتي إلى سـاقهِ الخشـبيةِ.. قـال بسخريةٍ:

- معلش.. أصل سبتها في الكويت أيام حرب الخليج..

ثـم سـحب طاهـر بعيـدًا عنـي دون كلمـةٍ أخـرى.. راقبـتُ مـن بعيـدٍ حديثهـما المتوتـر والـذي انتهـى بـأن احمـرَّ وجـهُ طاهـر ثـم طـوَّح بيـدِه في اتجـاه هتلـر وألقـى سـبَّةً لم أسـمعها لكنـي ميَّـزت حروفَهـا عـلى شـفتيْه..

وهكـذا لم يـدمْ حديثُهـما طويـلًا إذ سرعـان مـا سـار طاهـر باتجاهـي مُتلفتًـا بـين الحـين والآخـر نحـو هتلـر الـذي راح يُتابعـه في صمـتٍ.. ولأول مـرةٍ منـذ أن التقيـتُ طاهـر لمحـتُ شـياطين الجحيـم تتراقـصُ فـوق جبينِـه.

اسـتيقظتُ مـن جديـدٍ عـلى الضجيـج الـذي يـأتي مـن الأسـفل، هـذه المـرة كان واضحًـا وأكـثر قـوةً.. حاولـتُ أن أعـودَ للنـوم لكنـي عجـزتُ.. غبطـتُ ولاء عـلى نومِهـا الثقيـل وودت لـو أسـقطتها عـلى الأرض..

تناولـتُ علبـة سـجائري، ثـم أشـعلتُ سـيجارةً ووضعتُهـا في فمـي.. سـحبتُ نفسًـا طويـلًا وأنـا أُراقـبُ مـا تبقَّـى مـن عـودِ الثقـاب والنـار تلتهمُـه ببـطءٍ حتـى تفحَّـم.. شردتُ قليـلًا قبـل أن أفيـق حـين سـعلت ولاء بحـدةٍ بعدمـا تسـلل بعـضُ الدخـان إلى صدرهـا.. تحسَّسـتُ وجهَهـا بأنامـلي فرأيـتُ فيهـا مـا لم أره مـن قبـل.. أطفـأتُ السـيجارةَ بعدمـا أنهيـتُ نصفَهـا بالـكاد..

نهضـتُ مـن الفـراشِ ونزلـتُ عـلى رُكبتـي.. ألصقـتُ أذني بالأرضيـة.. صـوتُ مِعـول يحفـرُ ويكـسرُ في الصخـر..

تسـاءلت عـن سرِّ تلـك الأصـوات الليليـةِ.. أجبـتُ نفـسي بـأن هنـاك أمـرًا خطـيرًا يحـدثُ في الأسـفل..

كـدتُ أن أسـتمر في سـؤالِ نفـسي لـولا أن مـرَّ بجـوار وجهـي صرصـارٌ كبـيرٌ قبيحُ الشـكل.. تحرَّكـت قرونُ استشـعارِه نحـوي، وقبـل أن أتمكـن مـن سـحقه غـاب بسرعـةٍ داخـل أحـد الشـقوق..

نهضتُ من على الأرض وقد شعرتُ بصريرٍ يئن داخل ركبتي.. ذهبتُ إلى الباب وأنا أتمنى أن تكونَ راجية قد نسيت وضع القفل عليه، لكن محاولةً أولى وثانية وثالثة لفتحهِ جعلتني أتأكد أنها لم تنس.

حسنًا.. أنا اليوم لن أظل حبيسَ تلك الجدران.. الأيام الماضية كنتُ قد قضيتُها في دراسة التفصيل المعماري للمنزل.. من حُسن الحظ أني فطنتُ إلى أن نافذة المطبخ تطل على منور السلم..

توجهتُ إلى المطبخ بخطى سريعةٍ.. العفنُ والرطوبةُ التي التهمت الجدران كانا حاضريْن هناك بشدةٍ..

تحسستُ خطواتي هناك وتجنَّبت الأواني المصنوعة من النحاس والألومنيوم حتى لا أصدر أي ضجيجٍ..

كانت النافذةُ صغيرةً وتكفي لعبوري بالكاد.. أزحتُ كل ما حولها من كراكيبَ ومهملاتٍ تم وضعُها على حافتها.. خلعتُ الإطارَ الخشبي الذي يُحيط بها محاولًا توسيعَ المجال أمامي إلى أقصاه ثم تسلقت عليها.. حين أوشكتُ على العبور منها اكتشفت أنها أوسع مما تخيَّلت.. أو ربما أنا أنحف مما أعتقد..

عـبرتُ إلى منـور السـلم ومنـه أخـذتُ أمـشي فـوق درجاتـه في اتجـاه الأسـفل نحـو مصـدر الصـوت..

كان السـلم معتـمًا وتحاشـيتُ أن أشـعلَ نـورَه في مزيـدٍ مـن الحـذر، واسـتعضتُ عـن ذلـك بنـور كشـاف تليفـوني.. صحيح أنـه كان ضعيفًـا جـدًّا لكنـه كفـل لي حـدًّا معقـولًا مـن الإضـاءة أميِّـز بهـا الدرجـات..

عـبرتُ مـن أمـام شـقة طاهر.. سـمعتُ صـوت التلفـاز يأتي مـن داخلهـا وتحديـدًا الصـوت المميـز لدبلجـة المسلسـلات الـتركي..

أكملـتُ طريقـي ومـع اقـتربي مـن الـدور الأول لمحـت صرصـارًا أسـود يجـري بـين قدمـيَّ.. أكاد أقسـم أنـه نفـس الصرصـار الـذي كان في الأعـلى.. حاولـتُ أن أهرسـه بقدمـي لكـن اللعـين غـاب مـن جديـدٍ داخـل أحـد الشـقوق..

في الأسـفل كان كل شيء يغـرقُ في الظـلام الدَّامـسِ، فقـط كان ضـوءًا صغـيرًا يتسـللُ مـن أسـفل بـاب غرفـة نـوم راجيـة..

تنصَّـت محـاولًا البحـثَ عـن مصـدر الصـوت والـذي تـلاشي منـذ قليـلٍ..

صـبرتُ برهـةً.. لا صـوت.. لا حركـة.. اللعنـة.. هـل كنـتُ أتخيَّـل ذلـك..

عـاد الصـوتُ مـن جديـدٍ.. تتبَّعـتُ مصـدرَه.. قـادني إلى الكومودينـو الأثـري العمـلاق.. الغريـب أنـه لم يكـن في موضعـهِ.. كانـت قـد تمَّـت إزاحتُـه جانبًـا تـاركًا آثـار خـدوشٍ فـوق السـجادة.. تحـت مكانـهِ مباشرةً رأيـتُ حفـرةً في الأرضِ.. خلفهـا لمحـتُ ممـرًّا طويـلًا يخـرجُ منـه ضـوءٌ خافـتٌ ممتـزجٌ بغبـارٍ قِرْمِـزِيٍّ اللـون.

أغلقـتُ نـورَ هاتفـي ونزلـتُ إلى الأسـفل عـبر سـلمٍ خشـبي متهالـكٍ أوشـك أن يتحطـم تحـت وطـأةِ ثقـلي..

كان لوقـعِ ملامسـةِ قدمـي الأرض صـوتٌ مكتـومٌ.. توقَّـف صـوتُ الحفـرِ وسـمعتُ ارتطـام شيءٍ معـدنيٍّ بـالأرض.. ثـم سـكن كل شيء.. تسـارعت أنفـاسي رغـمًا عنـي وسـمعتُها عاليـةً مثـل دقـات طبـول.. مشـيتُ إلى الأمـام وأنـا أحنـي رأسي متجنبًـا القوائـم والعـوارض الخشـبية التـي تـم غرزُهـا في السـقف وجوانـب الممـرِّ..

فجـأةً.. أغـشى وجهـي نـورٌ هائـلٌ وقبـل أن أنطـقَ أو أرفـعَ يـدي لحمايـة عينـي، ارتطـم شيء ثقيـلٌ بصـدري، ثـم طوَّحنـي أرضًـا وسـقطتُ عـلى وجهـي فدخـل الـترابُ في حلقـي وكتـم أنفاسي..

حاولـتُ النهـوضَ وأنـا أطـوِّح بقبضتـي في كل الاتجاهـات وبعشـوائيةٍ شـديدةٍ محـاولًا الدفـاع عـن نفـسي، لكـن سـمعت

صرخـةً هائلـةً اهتـزَّت لهـا جوانـبُ الممـرِّ وحطمـت أعصـابي ثـم رأيـتُ فأسًـا تهـوي باتجـاه رأسي.

هـل سـمعتم مـن قبـلِ عـن قصـة الفـلاح والفـأس.. إنهـا قصـةٌ ممتعـةٌ للأطفـال عـن فـلاحٍ سـقطت فأسُـه في البحـر، فـإذا بعـروسِ البحـر تخـرجُ لـه ومعهـا فـأسٌ مـن فضةٍ وتسـأله هـل هـذه فأسـك لكنـه يُجيـب بالنفـي، ثـم تغـوصُ وتخـرجُ بفـأسٍ مـن ذهـبٍ وتسـأله مـن جديـدٍ فيُجيـب بالنفـي مـن جديـدٍ، وحـين تخـرجُ لـه بفأسـهِ المصنوعـةِ مـن الحديـد يأخذهـا، فتقـوم عـروس البحـر بمكافأتـهِ عـلى صدقـهِ وأمانتـه، وإهدائـه الفـأس المصنوعـة مـن الفضـة وكذلـك المصنوعـة مـن الذهـب.

لا أعلـم لمـاذا تذكـرت تلـك الحكايـة حـين رأيـت طاهـر وهـو يمنـعُ هتلـر في اللحظـةِ الأخـيرةِ مـن تهشـيم رأسي بالفـأس.

- قوم!

قالها طاهر وهو يُعاونني على النهوض.

- إنت بتعمل إيه؟

أخـذ طاهـر نفسًـا عميقًـا وتبـادل النظـر مـع هتلـر الـذي راح ينظـرُ لي بتحفُّـزٍ شـديدٍ، ثـم أجابنـي:

- إنت شايف إيه!

- شايف حفر.

أخـبرني أنـه يبحـثُ عـن مقـبرةٍ فرعونيـةٍ، وأن تحت أسـاس المنـزل كنـوزًا وآثـارًا تكفـي لـكي تمـلأ متحفًا.

- عشان إيه؟

سـألته، فضحـك بصـوتٍ مرتفـعٍ وشـاركه هتلـر الضحـك.. قـال بعـد أن انتهـى:

- الفلوس يا جوز أختي.. المصاري.. هو فيه غيرها.

ثـم قـصَّ لي عـن الكثـير مـن أبنـاء القريـة الذيـن اغتنـوا بفعـل الآثـار وبيعِهـا، ثـم أنهـى قَصصـه بقولـهِ:

- فلوس ملهاش عدد يا جوز أختي.

- وإنت متأكد أن تحت البيت آثار؟

تناول من على الأرض قطعًا حمراء صغيرةً وناولها لي:

- ده اسـمه (شـقف).. علامـات ودليـل عـلى وجـود مقـبرةٍ هنـا

تحسَّست الشقف بيدي.. كان أملس وناعمًا أشبه بالفخَّار.. استطرد:

- حاول تكسره!

حاولتُ أكسره لكنه كان صُلبًا، على الرغم من رقته الشديدة.. عاد يقول:

- مبيتكسرش.. اللي عمله الفراعنة.. جدودنا.. واللي موجود هنا هو ورثي ونصيبي منهم.. حلال ربنا.

طلب مني طاهر أن أشاركه ولي نصيبٌ مما سوف نجد.. في الحقيقة هو لم يكنْ يحتاجُ أن يطلب مني، لو اصطبر قليلًا لكنتُ توسَّلتُ له.. وهكذا قضيتُ معه بقية الليل تعرَّفت خلاله على طريقة الحفر ورصِّ العوارض الخشبية، ثم وفي الصباح تركته وصعدت..

لم تكد ولاء تراني حتى هبَّت واقفةً منزعجةً تسألني عما حدث وأين كنتُ..

أخبرتها بكلِّ شيء.. نعم كل شيء.. هي ستعلمُ الحقيقة في النهاية ولا فائدة من الكذب عليها..

كعادتِها رفضتْ.. اعترضتْ.. تزمَّرت.. ثم وفي النهاية رضختْ على مضضٍ..

مرَّ اليوم عاديًا جدًّا وفي المساء تجهَّزت للنزول إلى طاهر الذي لم يقم بقفل الباب علينا..

فوجئتُ بولاء تسبقني إلى الأسفل باتجاه النفق وقد ارتدت ترنج سوت وعقدت شَعرها على هيئة فيونكة فبدت مثل مراهقةٍ في ثانوي.. حاولت أن أمنعها لكنها كانت صعبة المراس وصممتُ أن تأتي معي.. رأيت أن من الأسلم ألا أجادلها أكثر من هذا فاصطحبتها بعدما لكمتُها في كتفها بينما ركلتني في ساقي..

في طريقنا رأينا راجية في المطبخ تُعد الشاي وهي تُغني أغنيةً شعبيةً حزينةً باللهجة الصعيدية لم أتبين منها سوى حروفِ الشين والخاء.. حين لمحتني كفَّت عن الغناء وحملت الصينية باتجاهي، ثم قالت لي:

- خد دول معاك وإنت نازل!

تناولتها منها بحذرٍ، بينما سحبت ولاء وطلبت منها أن تبقى وتترك أمر الرجال للرجال.. ولاء وعدتها أن تكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة.. في تلك الأثناء جاءت

دلال وفي نيتها النزول أيضًا.. تطايرت الكلماتُ بين الثلاثة.. تسللت من بينهم بهدوءٍ..

جاء صدى صوت طاهر من الأسفل رنانًا:

- إيه اللي بيحصل فوق؟

التفتوا جميعًا نحوي فيما يُشبه (إلى أين أنت ذاهب؟).. قلتُ وأنا أرفعُ صينية الشاي:

- كنت هنزل الشاي وأرجع.

سبقتني ولاء في النزول وكذلك دلال.. مما يبدو أن تلك الأخيرة اعتادت النزول..

عندما صرتُ في النفق رأيتُ طاهر يدخلُ في حديثٍ مُحتدمٍ وغاضبٍ مع ولاء، بينما انزوى هتلر في أحد الأركان راسمًا على محيَّاه الخجل والكسوف المصطنع، لكنه كان يختلسُ النظر على مؤخرةِ دلال بين الحين والآخر.. ناولته كوب شاي وأشرت بإصبعي على عيني ثم عليه، فيما يعني أنني أراقبك وأرى نظراتك الوقحة.. ابتسم ثم نفخ على حافة الكوب ورشف رشفةً طويلةً:

- حلو قوي الشاي.

لم أرد عليه وأشرت له بأن ينتحي بنفسه بعيدًا، فاستجاب على مهلٍ.. في تلك الأثناء كانت ولاء وطاهر قد

انتهيا من شجارهما القصير وهدأت الأجواء كثيرًا خاصة بعد أن تدخَّلت دلال.. قلت لولاء وأنا أساعدها على الصعود لاعتلاء السلم:

- قلت لك من الأول مفيش داعي..

ثم طمأنتها أن الأمور سوف تكون على ما يُرام.. نظرتْ لي فيما يُشبه: (أيها الأحمق أنت دائمًا تُفسد كل شيء).. عُدت بعد ذلك لاستكمال الحفر وتجنَّبت الحديث حول ما دار الآن..

استمرَّ حفرنا عدة ليالٍ.. كان الحفر شاقًّا وليس بالهيِّن كما توقعتُ.. هناك أجواء خانقةٌ وأكوامٌ من التراب والحجارة لا بد من الصعود بها ثم حملُها للخارج وإفراغها..

بمرور الأيام انطفأت حماستي أسرع مما كنتُ أتوقع، وكذلك أرهقت جسديًّا على نحوٍ بالغٍ..

فكرت ثم قررت أن أنسحبَ من هذا الموضوع.. وفي اليوم الذي هممتُ فيه أن أخبر طاهر، أوقفتني صرخة هتلر.. هرعت مع طاهر نحوه ونحن لا نعلم علام صرخ.. في البداية ظننتُ أنه ربما يكون قد أُصيبَ لكني رأيته يقفُ يرتعشُ وتحت قدميْه سقط معوله الحديدي..

بجـوار المِعـول لمحـتُ قطعـةً حجريـةً تـبرز مـن تحـت الأرض.. مسـحتُ بيـدي الـتراب مـن فوقهـا.. كانـت أشـبه بـبـاب مقـبرةٍ فرعونيـةٍ.. ابتسـم هتلـر في ظفـرٍ ولمعـت عينـا طاهـر..

أمسـكتُ المِعـولَ وبـكلِّ قـوتي ضربـتُ بـابَ المقـبرةِ فخرجـت منـه نـارٌ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

عبثًا حاولنا أن نكسرَ بابَ المقبرةِ أو حتى نُحركه.. كان صامدًا في وجوهنا ومتحديًا بشكلٍ لا يُصدق..

طلع الصباح علينا دون أن نشعرَ به.. جاءنا صوتُ راجية من الأعلى ليُنبهنا بذلك.. كان من المستحيلِ أن نستمرَّ فيما نفعل خوفًا من أن يشعرَ الناسُ بنا.. فكَّرتُ أن نخرجَ لنستريحَ، ثم نعود في المساء ونحاول من جديدٍ.. كان هتلر رافضًا تمامًا للفكرةِ وأراد أن ينامَ بجوار المقبرة لولا أن نهره طاهر بشدةٍ وكاد أن يتعاركَ معه..

مرَّ النهارُ طويلًا وأنا في انتظار قدوم المساء للهبوط إلى المقبرة من جديدٍ.. على وقت العصاري جاء هتلر مثل حيوانٍ عابسٍ.. لم يتحمل كل هذا الوقت والانتظار..

جلسنا نحن الثلاثة وقضينا الوقت المتبقي في الحديث عن كيفية بيع الآثار.. يا للروعة سوف أصبح مليونيرًا بعد لحظاتٍ..

- هشتري أرض الحاج (عبادة)؟

قالها هتلر وهو يسترخي في مجلسه.. لا أعرفُ من هو الحاج عبادة لكن على ما يبدو أنه شخصٌ يمتلكُ أرضًا ويبدو أيضًا أنه يعرضها للبيع.. احتج طاهر:

- لا.. اتقل.. الفلوس بتاعتك متطلعش مرة واحدة عشان العين..

ضحك هتلر بضجرٍ:

- متخفش.. الناس كلها دلوقتي اتعمت..

سألتُ بهدوءٍ، ولكن بلهفةٍ شديدةٍ:

- تفتكروا نصيب كل واحد كام؟

أجاب طاهر:

- ده رزق وكرم من عند ربنا.. وربك لما بيكرم بيكون من غير حساب..

لم تكد الشمس تغطس قليلًا حتى هرعنا ونزلنا.. وأمام مكان المقبرة توقف ثلاثتنا.. فركت عيني غير مصدِّق لما

أرى.. تلفت طاهر يمينًا ويسارًا مثل شخصٍ ضلَّ الطريق.. مدَّ هتلر يدَه وقبض على حفنةٍ من الترابِ وراح ينظرُ لها بذهولٍ وهي تتسللُ من بين أصابعهِ..

المقبرةُ لم تكن موجودةً..

اختفت.

لم أجد تفسيرًا منطقيًّا لاختفاء المقبرة.. قال هتلر بنبرةٍ غريبةٍ:

- الجن سحبوا المقبرة..

قال طاهر بمرارةٍ:

- كان لازم حدّ فينا يبات جنبها..

سألته وأنا أتابعه وهو يغدو في المكان ذهابًا وإيابًا:

- طيب والحل؟

ردَّ هتلر بدلًا منه:

- مفيش قدَّامنا غير حل واحد..

ثم اقترح علينا أن نذهب للشيخ السيناوي فهو الوحيدُ القادرُ على إرجاع المقبرة وفتحها.. لم أكن أعلم

مَـن هـو الشـيخ السـيناوي.. طاهـر أخـبرني أنـه شـيخ سُـفلي لـه كرامـات وعلامـات مـع الجـن والقريـن..

بالنسـبة لي لا أصـدِّق في كلام السـحر والشـعوذة.. ربمـا تكـون محاولتنـا لفتـح بـاب المقـبرة أدت إلى زحزحتهـا قليـلًا، وبالتـالي تحركـت الرمـال مـن حولهـا فغاصـت.. أخبرتهـم بهـذا فاسـتقبلوه بتهكـمٍ شـديدٍ.. رمـى لي هتلـر المِعـول تحـت قدمـي، وقـال:

- لو إنت مصدّق كلامك احفر!

حركت معصمي قليلًا وأمسكت المِعول..

نعم سوف أحفر بلا توقفٍ..

لكن ليس اليوم..

ألقيـتُ المعـولَ وأخبرتهـم أني معهـم حتـى النهايـة.. ثـم أكملـت:

- إنتوا متأكدين من موضوع الشيخ السيناوي؟

- مليون الميه..

قالهـا هتلـر بنـبرة الشـخص الـذي لا يُخطـئ أبـدًا ثـم أخبرنـا أنـه سـيذهبُ للسـيناوي لتمهيـد الموضـوع أولًا وبعدها سـوف يتصـل بنـا..

وفي اليـوم التـالي حـين اقتربـت السـاعة مـن السادسـة طلـب منـي طاهـر أن آتي معـه لأمـرٍ مهـم..

في الخـارج كانـت الشـمسُ قـد أصبحـت شـاحبةً وأوشـكت عـلى الغروب

حـين أخـبرني أن هتلـر قـد اتصـل بـه وأنـه ينتظرنـا عنـد السـيناوي، أخـبرني كذلـك أن السـيناوي يسـكن عـلى مسـافة سـاعة بالسـيارة..

أخـرج زنوبـة وطلـب منـي الركـوب عـلى الرغـم مـن إلحاحـي عليـه بـأن نركـبَ سـيارتي..

في الطريق وعلى غير العادة اكتفى بالقيادة في صمتٍ..

وصلنـا إلى نهايـة القريـة حيـث اختفـت الـزروع الخـضراء وحلَّـت مكانهـا تـلالٌ مـن الرمـل الأصفـر..

عرجنـا إلى طريـقٍ جانبـي غـير ممهـدٍ يتسـع بالـكاد لمـرور السـيارة.. وأخـيرًا توقفنـا أمـام منـزلٍ تخـرجُ منـه الظـلال عـلى نحـوٍ غريـبٍ.. جـدًّا.

طرق طاهر الباب طرقةً خفيفةً، وانتظر..

لحظـاتٌ وفُتـح البـاب وطـلَّ منـه ولـدٌ صغـيرٌ شـديدُ النحـول، يرتـدي جلبابًـا أبيـض قصـيرًا يصـلُ بالـكاد إلى عقبيْـه.. رحَّـب بنـا بصـوتٍ مبحـوحٍ ناتـجٍ ربمـا عـن إصابتـه بمـرضٍ في الأحبـال الصوتيـة، ثـم قادنـا إلى صالـةٍ واسـعةٍ وجدنـا فيهـا هتلـر يجلـسُ يُتابـع مبـاراةً مسـجلةً في كـرة القـدم عـلى شاشـة تلفـازٍ قديـمٍ أبيـض وأسـود..

ابتسـم هتلـر ابتسـامةً عريضـةً كشـفت عـن صـفٍّ مـن الأسـنان "المنخـورة" تتوسـطها سِـنَّةٌ ذهبيـةٌ لامعـةٌ وتبـادل مـع طاهـر حديثًـا سريعًـا، بعدهـا أشـار إلى كـرسي عريـضٍ وطلـب منـي أن أنتظـر، ثـم دخـل كلاهـما إلى غرفـةٍ لهـا بـابٌ داكـنٌ سـميكٌ وتعلوهـا لوحـةٌ مصنوعـةٌ مـن ورق الـبردي.. سـمعتُ بعـد ذلـك صوتًـا أجـشَّ يُرحِّـبُ بطاهـر بعدهـا انقطعـت الأصـوات خلـف البـاب الـذي أوصـد.. لم أسـتطع الجلـوس.. درتُ في أرجـاء الصالـة.. توقفـتُ في مواجهـة مـرآةٍ كبـيرةٍ أنظـر مـن خلالهـا إلى الجـدران وإلى نفـسي وأفكـر..

قطـع تفكـيري صـوتُ اهتـزاز زجاجـي وخطـوات بطيئـة.. جـاءني الولـدُ يحمـل صينيـة عليهـا زجاجـة مـاء وكوب ينسـون تتصاعـد منـه أبخـرةٌ خفيفـةٌ.. وضـع أمامـي الصينيـة وسـألني إذا كنـتُ أرغـب في شيء آخـر، شـكرته فذهـب وجلـس عـلى

الأرض بجـوار البـاب في انتظـار ضيـفٍ جديـدٍ.. سـألته عـن اسـمه فأجـاب:

- إكرام.

تعجَّبت من الاسم.. عدتُ أسأله:

- أنت مسيحي؟

ابتسم ابتسامةً شاحبةً، وكأنه كان يتوقع هذا السؤال ثم أجاب:

- لا.. مسلم.

ثـم أخـبرني أن والـده أراد أن يُسـميه أكـرم لكـن كاتـب الوحـدة الصحيـة أخطـأ في كتابـة الاسـم وأضـاف حـرف الألـف ولم يتـم اكتشـاف الخطـأ إلا بعـد سـنوات نظـرًا لكـون الأب والأم لا يسـتطيعان القـراءة.

انتهـى بعـد ذلـك كلامـي مـع إكـرام والـذي راح يُحـدق في السـقف مثـل المدمنـين ويتمتـم بمـوَّالٍ حزيـنٍ..

مـرَّ عـليَّ الوقـتُ بطيئًـا كالسـلحفاة وأصبـت بالملـل وبرغبـةٍ في قتـل إكـرام حتـى يتوقـفَ عـن الغنـاء.. نهضـتُ مـن مـكاني وتوجَّهـت حيـث دخـل هتلـر وطاهـر ثـم طرقـتُ البـاب:

- طاهر..

ناديـتُ.. أفـاق إكـرام مـن إدمانـه وأشـار لي بذعـرٍ أن أعودَ حيـث كنـتُ.. تصنَّعـت الغبـاء وطرقـت البـاب مـرةً أخـرى وأنـا أشـير لـه بعلامـة الـ ok.. خـرج طاهـر والعَـرق يتصبَّـب عـلى جبينـه.. قلـتُ:

- اتاخرت قوي..

- معلش.. تعال ادخل!

ثـم أفسـح لي مجـالًا بجسـده فدخلـتُ.. مشـيتُ فـوق سـجادةٍ اختفـت ألوانُهـا بفعـل الزمـن وكـثرة الاسـتخدام.. في الداخـل كـدتُ أن أختنـقَ مـن دخـان البخـور فسـعلتُ بشـدةٍ قبـل أن أُخـرج منديـلًا وأضعـه أمـام أنفـي.. درت بعينـي سريعًـا.. كانـت الإضـاءةُ تعتمـدُ عـلى الشـموع الكبـيرة فأعطـت رهبـة للمـكان.. الجـدران اكتسـت بطبقـةٍ قاتمـةٍ.. السـقف كان يبـدو مثـل السـماء وقـت العاصفـة.. وفي المنتصـف شـاهدته جالسًـا..

رفـع وجهَـه نحـوي وابتسـم.. الشـيخ السـيناوي.. كان متوسـط القامـة لكنـه يبـدو طويـلًا نظـرًا لنحافتـه الشـديدة، حـادّ الملامـح، لـه أنـفٌ معقـوفٌ كالمنقـار يجـذبُ النظـر وعـينٌ صفـراء لامعـة.

أخبرنـا السـيناوي أن المقـبرة يحرسُـها مَلَـك مـن مُلـوك الجـان ومعـه قبيلـة كاملـة مـن الخـدم والمسـاخيط..

أردت أن أسأله.. ولماذا كل هذا الحشد، لكنه عاد يقول وكأنه سمعني:

- صاحب المقبرة كان من كهنة الفرعون..

ثم أخبرنا أنه لإعادة المقبرة نحتاجُ إلى تحضير مَلك الجن على بدنِ واحدٍ منا نحن الثلاثة.. طبعًا أنا رفضتُ الفكرة من الأساسِ واستنكرتُها.. هتلر التزم الصمت وأجاد اصطناع دور العبيط المُغفل.. وهكذا تسلطت وجوهُنا ونظراتُنا على طاهر الذي أعلن عن استعداده..

اتفقنا بعد ذلك مع السيناوي على بضع أشياء كان أولها نصيبُه في الغنيمة وآخرها أن نحضر ٥ جرامات من الزئبق الأحمر[١].

فجأةً سمعنا صرخةً ممزقةً جاءت من غرفةٍ مجاورةٍ وبدت كصرخةِ شخصٍ يُعاني أبشع الألم اتبعها المزيد من الصرخات ثم العويل واللطم..

- إيه الصوت ده؟

ابتسم السيناوي:

---

(١) الزئبق الأحمر: مادة يعتقد أنها خرافية لا وجود لها، ذاع صيتها منذ الثمانينيات وما زال الكثيرون يؤمنون بوجودها رغم عدم تحديد ماهيتها أو تركيبتها على وجه التحديد ويقال إنها تستخدم لتحضير الجن)

- سيب اللي في الغيب لعالم الغيب..

قالها ثم مدَّ يدَه للأمام وأغمض عينيْه:

- بخ.. بخ!

لم أدرِ هل قالها استطرادًا لكلامه أم أنه قالها لإرهابي.. على كلٍّ الأحوال كانت صيحةً مُفزعةً جعلت شَعر رأسي ينتصبُ واقفًا.

راح بعد ذلك يقصُّ علينا حكاياتٍ عن كرامته وأفعاله الخارقة.. شعرتُ أنه يُحاول أن يُبهرنا.. بلا شك هو مجرد نصَّاب.. أنا واثقٌ أنه لا يُوجد هراء الجن الذي يحكيه.. لكن ماذا عن ذلك الشبح الذي خرج من الأرض ثم غاص داخل الحائط في لمح البصر.

أعطانا السيناوي عنوان وهاتف أحد تجار الزئبق الأحمر.. طاهر اتصل به واتفق على المبلغ ومكان وميعاد التسليم..

سافرت معه إلى بلدٍ يقع في واحدةٍ من محافظات الوجه البحري.. كان لقاؤنا مع البائع في أحد الفنادق القديمة التي لا يذهبُ لها غير الشحاذين والمجرمين.. لن

أخـوضَ في تفاصيـل كثـيرةٍ لكـن يكفـي أن أخبركـم أننـا عُدنـا ومعنـا ٥ جرامـات كاملـة مـن الزئبـق الأحمـر..

قـام طاهـر بالاتصـال بالسـيناوي الـذي اتفـق معـه أن نلتقـي في مقـبرة التـل الأحمـر وقـت منتصـف الليـل.. وهكـذا أعددنـا العـدة وانتظرنـا.. ثـم حـين أصبـح الظـلام حالـكًا سرنـا عـبر الممـرِّ الوعـر الـذي يقـودُ إلى قمـة التـل حيـث المـكان المنشـود..

شـعرتُ بالرهبـة حـين رأيـتُ عـشرات المقابـر المتناثـرة هنـا وهنـاك.. أخـبرني طاهـر أن هـذا المـكان كان لفـترةٍ قريبـةٍ مدفنًـا لأهـل القريـة قبـل أن تضمـه وزارةُ الآثـار وتمنـع الدفـن فيـه.

بعـد أن عبرنـا المقابـر بمسـافةٍ قصـيرةٍ سـمعتُ جلبـةً، ظهـر عـلى أثرهـا الشـيخ (السـناوي) مـن وراء كتلـةٍ حجريـةٍ كان يجلـسُ خلفهـا.. تقـدم نحونـا وقـال بنـبرةٍ تنـم عـن القلـق:

- اتأخرتوا!

ودون أن ينتظرَ منا ردًّا التفت إلى طاهر واستطردَ:

- جبت الزئبق الأحمر؟

ناولـه طاهـر زجاجـة الزئبـق ثـم أخـرج مـن جيبـهِ خصلـةَ شَـعر بُنيـة لم يُخـبرني عنهـا.. كـدتُ أن أسـأله عنهـا لـولا أن

لمحَ السؤال في عينيَّ فأشار لي بأن أصمتَ وأن هذا ليس وقته..

وضع السيناوي طشتًا نحاسيًّا ملاه بالدمِ وطلب من طاهر أن يجلسَ به.. لمحتُ التردد والخوفَ في عيني هذا الأخير.. لا أنكر أنني أيضًا كنتُ أشعر بالخوف.

جلس طاهر بحذرٍ، بينما أخرج السيناوي جمجمةً ضخمةً وخطَّ فوقها طلسمًا ووضعها فوق صدر طاهر.. ثم وبأعلى صوته راح يُكرر:

- بحق القلم واللوح.. بحق علشاقيش، إسماطون، لوطياف، هلولياه.. أجيبوا يا خدَّام هذه الأسماء.. أجب يا ناصور أنت وأعوانك من الخدم والعفاريت.. أسألك أن تُسخر لي واحدًا من خدَّام اسمك يخدمني فيما أريد.

ثم شهق شهقتيْن وفتح فم طاهر قسرًا وحشر داخله زجاجة الزئبق الأحمر. سمعتُ بعدها صوت طنينٍ يُشبه طنين النحل وإن كان أكثر قوةً وأشد رهبةً بالتزامن مع أنفاسٍ كثيرةٍ وخطى أقدامٍ غير مرئيةٍ.. ثوانٍ، ثم سمعتُ مَن يقول:

- لقد أمرتَ خدمنَا بالحضور فحضرنا، ولك منا السمع والطاعة

تلفَّت حولي.. لا يوجد غيرنا.. لمعت عين السيناوي.. طاهر يرتعدُ وقد أوشك على البكاء..

طرقتْ عقلي كلمةٌ ما.. لا أعلمُ إن كانت كلمةً أم نداء أم اسمًا.. فقط كانت تتكرر مرارًا وتكرارًا:

- (سوميا)

ارتحلت عيني نحو طاهر الذي أصدر حشرجةً مخيفةً وشخصت عيناه إلى السماء، بينما برزت عروقُ عُنقه الزرقاء على نحوٍ بشعٍ..

شممتُ رائحة كبريت.. أحسستُ بشيء شريرٍ قد حضر.. انغلقت رئتاي ولم أعد قادرًا على التنفس.. انسحبت الدماء من جسدي وتجمعت في رأسي حتى كاد أن ينفجر.. سقطتُ على ركبتيَّ وقد ضربتني غشاوةٌ.. لمحت رأس طاهر يسقط فوق صدره ثم هويتُ بجبيني فوق الأرضِ وابتلعتُ كل غبار الكون.

شهقتُ فجأة..

فتحت عينيَّ مذعورًا.. رأيت الشمسَ مُعلقةً على يميني صفراء زاهية.. تلفَّت من حولي لأجدَ نفسي داخل سيارة طاهر، بينما هو يقفُ بعيدًا يُدخن سيجارةً وقد راحت رياحُ الصباح الباردة تُحرِّك قميصَه..

خرجتُ من السيارة باتجاه طاهر.. كان يبدو بخيرٍ وبأتم حالٍ.. التفتَ نحوي حين استشعرَ اقترابي منه:

- فقت أخيرًا يا جوز أختي!

- إيه اللي حصلي؟

- شكلك مستحملتش إمبارح.. المهم إنت حاسس بحاجة؟

قلتُ غير مستوعبٍ:

- بصراحة مش عارف.. بس أنا دلوقتي كويس..

ثم سألته:

- دلوقتي إنت بقى عليك جنّ.. مضبوط؟

ابتسم ثم ناولني سيجارةً..

الفَصْلُ الخَامِسُ

اتفقنا مع السيناوي أن يأتينا مساء..

كانت الفكرة أن يقومَ بتحضير الجن الموجود على طاهر من أجل سحب المقبرة.. من حُسن الحظ أننا كتمنا خبر الشيخ السيناوي وما حوله عن نساء الدار..

تناولنا الغداء في المنزل وحين اقتربَ العصر جاءت دلال ترتدي ملابس الخروج.. علمت أنها في طريقها لزيارة أسرتها القاطنة في الطرف الآخر من القرية..

تبادلت دلال مع راجية بعض المناوشات الروتينية ثم انصرفت إلى حال سبيلها..

بعـد دقائـق سـمعنا ضجـةً وأصواتًـا مُناديـةً تـأتي مـن الخـارج.. كانـت جلبـةً كبـيرةً تـدلُّ عـلى حـدوث مصيبـةٍ.. أحسسـتُ بانقباضـةٍ في قلبـي وبنذيـرِ شـؤمٍ..

هرعنـا جميعًـا وبمجـرد أن فتـح طاهـر البـاب نزلـت الصاعقـة.. كانـت دلال مضرجـةً في دمائِهـا وقـد صدمتهـا سـيارة نصـف نقـل وألقتهـا عـلى آخـر الشـارع..

لـن أطيـلَ في ذكـر مـا حـدث، لـن أصـف صراخ طاهـر أو عويـل راجيـة.. سـأذكر فقـط أن الخـبر انتـشر سريعًـا في القريـة انتشـار النـار في الهشـيم.. كل شيء جـرى بعـد ذلـك سريعًـا.. أتـت الشرطـة تسـبقها سـيارة الإسـعاف، ثـم تحقيـق سريـع وتـم اقتيـاد السـائق إلى القسـم..

توجَّهنـا إلى المستشـفى حيـث أنهينـا الإجـراءات واسـتلمنا الجثـة بعـد أن تـم تغسـيلها وتكفينهـا بالداخـل.. في هـذه الأثنـاء كانـت الشـمس قـد غربـت وبـدأ الظـلامُ يغـزو القريـة ففوجئـت بـأن الدفـن سـوف يتـم غـدًا.. كان مـن ضمـنِ عاداتهـم أن يتـم الدفـن مـن طلـوع الشـمس وحتـى غروبهـا.

أحضرنـا الجثـمان ووضعنـاه داخـل المنـزل وبقينـا جميعًـا مُسـتيقظين..

مـرَّ الليـلُ بطيئًـا ثقيـلًا كأصعـب مـا يكـون.. خـلال ذلـك حاولـتُ أن أختـلي بـولاء إلا أنهـا كانـت ملتصقـةً بوالدتهـا

فلـم أجـد بـدًّا مـن الالتصـاق بطاهـر ومحاولـة أن أكـون زوجَ الأخـت الجيـد.

أتى الصبـاحُ وانتهينـا مـن صـلاة الجنـازة ثـم الدفـن.. في نهايـة اليـوم كنـتُ أجلـسُ بجـوار طاهـر داخل صـوان العـزاء..

اسـتمرَّ العـزاء خمسـة أيـام متتاليـة، أثنـاء ذلـك كانـت تأتينـا صـواني الأكل والطعـام مـن المنـازل المجـاورة..

الشـيخ السـيناوي زارنـا في اليـوم الرابـع.. اتخـذ مجلسًـا بعيـدًا وظـل يرقـبُ طاهـر مـن أسـفل عينيْـه.. بعـد أن انتهـى مـن أداء واجـب العـزاء أخـبرني أنـه يريـد أن يُحدثنـي في موضـوعٍ مـا.. لحقـت بـه خـارج الصـوان واتخذنـا ركنًـا بعيـدًا.. بادلنـي التعـازي ثـم قـال باهتـمامٍ:

- الجن بيطلع على طاهر؟

لم أكـن أملـك الإجابـة.. لم أكـن حتـى قـد فكَّرت في هـذا.. أدرت سـؤاله في رأسي عـدة مـراتٍ، ثـم أجبـتُ:

- لا..

هـزَّ رأسَـه ثـم أولاني ظهـرَه وتركنـي دون كلمـةٍ أخـرى.. استشـعرتُ الخطـر.. اسـتبقته عـدة خطـواتٍ ثـم واجهتـه:

- خير.. هو فيه حاجة خطر؟

ابتسم، ثم قال وكأنه يبصقُ في وجهي:

- لا..

لم أسترح لردِّه.. لكن في النهاية تركته يذهبُ وأنا أتابعه ببصري قبل أن أسمع طاهر يُنادي عليَّ..

توجَّهت لطاهر الذي كان يجلسُ بمفرده.. تفرَّست في ملامح وجهه فلاحظ ما أفعل:

- السيناوي كان عاوز منك إيه؟

كذبت عليه:

- كان بيسألني إذا كنت محتاج خدمة.. أهو كلام ابن عم حديت.. في الفاضي يعني..

استكان في مقعده، ولم يُعاود سؤاله..

في نهاية اليوم الخامس وبعد أن تم فضُّ صوان العزاء فوجئتُ بطاهر يسيرُ بمفردِه..

تابعتُه ببصري وهو يدورُ من خلف المنزل ثم يسيرُ كالشبح داخل الممرِّ الصاعد إلى التل الأحمر.. أوجفتُ في نفسي خيفةً وفكَّرتُ أن أناديه قبل أن ألاحظ ظلين يزحفان خلفَه.. أحدُ الظلين كان يمتلكُ قرنًا!

بعـد مـرور الأربعـين جـاءني هتلـر وأعلـن أنـه لم يعـد يطيـق الصـبر..

ذهبـتُ إلى طاهـر وسـألته إن كانـت حالتـه النفسـية تسـمحُ لـه بـأن ننـزل للمقـبرة مـن جديـدٍ.. لم يُمانـع وطلـب منـي أن أتصـل بالسـيناوي حتـى يحـضرَ فـلا فائـدة مـن الحـزن أو ضرر مـن جنـي المـال..

اتصلـت عـلى السـيناوي وفي المسـاء كان قـد أتى ومعـه إكـرام يحمـل لـه عـدة التحضـير وكل مـا قـد يلـزم..

نزلنـا إلى مـكان المقـبرة الـذي اكتـسى بطبقـةٍ غريبـةٍ مـن العفونـة.. جـرى الأمـرُ بعـد ذلـك سريعًـا.. بـل أسرع مـما قـد توقعـتُ أو تخيلـتُ.. قـرأ السـيناوي بضعـة طلاسـم فـوق رأس طاهـر ثـم.. لا شيء.. حقيقـي لا شيء..

وأخـيرًا جمـع السـيناوي عدَّتـه بسرعـةٍ وسـط دهشـتنا وكأنـه كان يتوقـع ذلـك وأخبرنـا أن الجـن لم يعـد موجـودًا داخـل طاهـر، ثـم غـادر تـاركًا إيانـا نـضرب أخماسًـا في أسـداس..

ثـار هتلـر، وسـبَّ ولعـن كثـيرًا، ثـم أعلـن أنـه سـيُحضر شـيخًا آخـر أكـثر سـحرًا وعلـمًا..

طاهـر، وكأنـه لم يحـدث شيء أغلـق النفـقَ وصعـد إلى غرفتـه.. حـين ذهبـتُ خلفـه وجدتـه يقـفُ أمـام صـورة زوجتـه.. ظـل ينظـرُ إليهـا قرابـة ربـع السـاعة.. اقتربـت منـه بصمـتٍ.. سـألته:

- مالك؟

نظـر لي، ثـم جذبنـي مـن يـدي في حركـةٍ غريبـةٍ.. اتَّجـه بي نحـو مـكانٍ منـزوٍ ليتأكـد ألَّا يسـمعنا أحـد:

- اسـمعني يـا مجـدي.. أنـا حاسـس إن الجـن الـلي جوايـا عـاوز يطلـع

شعرتُ بقشعريرةٍ تغزو أطرافي.. قلتُ له:

- إنت مبقاش عليك جن.. ناسي كلام الشيخ!

بقي صامتًا، ثم أجاب بكلماتٍ قليلةٍ:

- ممكن يكون عندك حق..

عـلى مائـدة العشـاء جلـس طاهـر جامـد الملامـح.. لم يضـع شـيئًا في فمـهِ واكتفـى بتحديجـي بنظـراتٍ بـاردةٍ.. حاولـتُ أن أفتـح معـه حديثًـا لكنـه أبى إلا الصمـت..

تبادلتُ مع ولاء نظراتٍ متسائلةً نقلتها هي إلى راجية التي سألته:

- مالك يا طاهر؟

ثم وضعت يدَها على كتفه برفقٍ.. أدار لها رأسَه ببطءٍ.. وبحركةٍ آليةٍ مدَّ يدَه ثم رفع يدها عن كتفه ونهض..

تابعته بكثيرٍ من القلق وهو يسيرُ.. ناديتُ عليه:

- رايح فين؟

التفتَ نحوي، ثم أجاب كالضائع:

- أنام.

لم يكن هذا ميعاد نومه الطبيعي.. قلتُ:

- طيب ما تيجي نخرج شوية!

- أنام..

ردَّدها من جديدٍ وكأنه لم يسمعني، ثم صعد السلالم باتجاه غرفته..

كانت أصوات خطواته تصلُ لنا واضحةً ثم انتهت فجأةً وران بعدها صمتٌ.. رهيبٌ.

اليـوم التـالي وتحديـدًا قـرب صـلاة الظهـر أخبرتنـي ولاء أن طاهـر لم يسـتيقظ بعـدُ.. قلـتُ:

- معلش ممكن بس تعبان..

لكنهـا إجابـةٌ لم تُقنعنـي أنـا نفـسي، وقبـل أن تـرد ولاء جـاءت راجيـة مُرتعشـة الوجـه.. أدركـت أن هنـاك مصيبـةً وبالتأكيـد محورهـا طاهـر أو أنـا.. قالـت إنهـا حاولـت إيقـاظ طاهـر عـدة مـراتٍ، لكنـه لا يسـتيقظ.. كادت أن تفلـت منـي كلمـةٌ:

- مات..؟

لكني كتمتُها في حلقي في آخر لحظةٍ.

توجَّهنـا مُسرعـين إلى غرفـة نـوم طاهـر.. حسـبتُ عـدد سـاعاتِ نومـه داخـل عقـلي..٢٠ سـاعة بالتـمام والكـمال.. مـدة طويلـة.

كان طاهـر راقـدًا فـوق سريـره متخشـبًا تمامًـا عـلى ظهـره وقـد فُـردت سـاقاه ورُفـع ذرعـاه إلى الأعـلى باتجـاه السـقف وكأنـه يُحـاول إمسـاك شيءٍ مـا..

اقتربـت بـأذني مـن صـدره.. سـمعتُ أنفاسَـه تدخـل وتخـرج.. طبطبـتُ عـلى وجهـهِ برفـقٍ:

- طاهر.. اصحى!

كان وجهُه باردًا كقطعةٍ من الثلج..

- ما له؟

قالتها ولاء..

- بصراحةٍ مش عارف.. بس احتمال تكون غيبوبة..

ثم التفتُّ إلى راجية مُتسائلًا:

- هو بيشتكي من مرض.. سُكر مثلا؟

أجابت بالنفي.. في الحقيقة كنتُ أعلم الإجابة مسبقًا.. طاهر صحته كالبغل إذا شئنا الدقة.. رحتُ أهزه بقوةٍ.. وبلا مُقدماتٍ فتح عينيْه وصرخ.

جلستُ أراقبُ طاهر طوال اليوم..

بعد ما حدث أمس لم أعد مطمئنًا له.. الغريب أنني كنتُ كلما اقتربتُ منه أشعرُ بثقلٍ في جسدي وتنميلةٍ غريبةٍ..

الجميعُ بمن فيهم أنا نعلمُ أن هناك شيئًا غير طبيعي في طاهر، لكننا نرفضُ الحديثَ حوله..

مـن جديـدٍ وحـول طعـام العشـاء جلسـنا.. كان يـأكلُ بشـهيَّةٍ مفتوحـةٍ عكـس السـابق.. قلـتُ لـه:

- عامل إيه النهارده؟

شرب قليلًا من الماء خلف لقمةٍ كبيرةٍ، وأجاب:

- تمام.. كويس قوي..

ثـم واصـل الأكل.. تناقشـنا جميعًـا عـمَّا جـرى لـه أمـس.. كان الاقـتراحُ الأنسـبُ أن نذهـب بـه لطبيـبٍ مُختـص.. طبعًـا رفـض وقـال إنـه كان مُتعبًـا ولا يوجـد شيء يسـتوجب القلـق، ثـم أنهـى المناقشـة بـأن نهـض وأخبرنـا أنـه سـوف يذهـبُ لينـام.

تبادلـتُ مـع ولاء وراجيـة نظـراتٍ قلقـةً ثـم أخبرتـه أننـا لـن نتحـدثَ في موضـوع الطبيـبِ وطلبـت منـه أن يسـهرَ معنـا لكنـه رفـض..

عـدتُ أطـارده وأطلـب منـه أن نذهـبَ للجلـوس عـلى قهـوة سـنية.. وافـق أخـيرًا بعـد إلحـاحٍ مـن ولاء وراجيـة..

وصلنـا إلى قهـوة سـنية التـي ارتعشـت أنوارهـا ربمـا بفعـل ضعـف التيـار الكهربـائي أو لشـدة تيـار الهـواء البـارد في تلـك الليلة..

استقبلت سنية طاهر بحفاوةٍ وعزَّته في زوجتهِ قبل أن تتركنا نجلس في ركنٍ بعيدٍ بعض الشيء عن الهواء..

أتى سنفور سريعًا ونظَّف الطاولة التي نجلس عليها بعد أن حيَّانا بحرارةٍ، ثم طلبت منه الشاي المعتاد.. ذهب ثم عاد كالبرق ووضع أمامنا برَّاد شاي أزرق تتصاعدُ منه الأبخرة الرمادية.. صببتُ لطاهر الشاي وأنا أقول:

- سيبها لله..

كان مُتجهمًا.. رفع بصرَه الذابل نحوي وقال:

- كله على الله..

ثم تناول كوب الشاي وأدناه من فمه ونفخ فيه ليطردَ حرارَته.. رشف عدة رشفاتٍ مُتتابعةً قبل أن يسألني:

- مبتشفش الشيخ السيناوي؟

- مِن آخر يوم كان معانا مشفتوش.. عاوزه في حاجة..

- السيناوي مش مضبوط.. آخر مرة كان مش على طبيعته..

- لو تحب أنا ممكن أروح له!

- لا.. خليك.. لمَّا أفوق أنا هروح له بنفسي..

حاولتُ أن أغيِّر الموضوع فعرضت عليه لعب الدومينو.. وافق على مضضٍ.. قضينا بقية الوقت في اللعب حتى انتصف الليل فلم يبقِ في القهوة غيرنا..

استشعرتُ تغيرًا في حالة طاهر وأنه قد عاد إلى طبيعته..

عُدنا للمنزل الذي كان يغرقُ في سكونٍ عجيبٍ.. تركتُ طاهر أمام باب غرفته.. صعدتُ إلى غرفتي ووجدتُ ولاء تختفي تحت البطانية وتغطُّ في نوم عميقٍ.. بعد ساعةٍ تقريبًا سمعتُ صوت ارتطامٍ قوي يأتي من غرفته.. لم أكن قد نمتُ بعد لذا نهضت من فوق السرير.. شعرتْ بي ولاء فقالت والنعاس يقتلها:

- رايح فين يا مجدي؟

- عطشان.. هروح أجيب إزازة ميَّه.

دثرت نفسَها بالغطاء، وأكملت نومَها..

نزلتُ السلالم باتجاه غرفة طاهر.. وقفتُ أمام بابها أصغي.. أسمعُ همسًا وهمهماتٍ غريبةً.. فتحتُ الباب برفقٍ ودخلتُ.. في الداخل كان الظلام يبتلعُ كل شيء.. سمعتُ نفَس طاهر وهو يعلو ويهبط.. أشعلتُ كشاف الموبايل متلمسًا بعض النور.. ميَّزت جسد طاهر فوق

سريـرهِ مُتصلبًـا مثـل الأمـس.. رأيـتُ للحظـةٍ أن هنـاك ظـلًا انسـحب فجـأةً داخـل جسـده.. حاولـتُ إقنـاع نفـسي بأنـه وهـمٌ.. دنـوتُ مـن طاهـر.. سـلطت الضـوء عـلى وجهـهِ.. أجفلـت في مـكاني وكـدت أن أصرخَ.. كان فمـه مفتوحًـا عـن آخـرهِ وعينـاه تنظـران لي.. مثـل شـيطان.

الفَصْلُ السَّادِسُ

طارت بومةٌ أمام وجهي حين فتحتُ النافذة.. صاحت ولاء بضيقٍ وهي تضعُ وسادةً على وجهِها:

- إيه اللي مصحِّيك بدري كدا؟

لم أخبرها أنني لم أنم منذ أن نزلت لطاهر.. لم أخبرها كذلك عن الوضع المُخيفِ الذي رأيته فيه..

تركت النافذةَ مفتوحةً وهبطت إلى الأسفل.. رأيتُ راجية تستعدُّ للوضوء وقد ظهر العجزُ عليها.. دار بيني وبينها حديثٌ سريعٌ انتهى بأن خرجتُ متوجهًا لأداء صلاة الفجر..

بالقرب من مدخل البيت رأيتُ شيئًا لم أتبين ماهيته جيدًا.. حين اقتربت منه أدركتُ أنه غرابٌ ميِّت.. كانت رقبته مُتيبسةٌ تمامًا والتوتْ بجانب جناحهِ الأيسر.. أمسكتُ به من ذيله ورميته بعيدًا..

في داخل المسجد ألقيتُ السلام على المُصلين الجالسين في انتظار إقامة الصلاة فردُّوا التحية بأصواتٍ لا تزال تحمل آثار النوم..

بعد أن انتهت الصلاة استندتُ بظهري على سلم المنبر الخشبي وأسبلت جفنيَّ.. كنتُ أحتاج إلى الشعور بالأمن والسَّكينة..

- هنقفل الجامع يا أستاذ!

فتحتُ عينيَّ على صوت عامل المسجد وهو يهزُّ كتفي برفقٍ.. اللعنة على هذا الزمن الذي تُفتح وتُغلق فيه المساجدُ بميعاد.. نظرتُ حولي فاكتشفت أنني الوحيدُ الباقي.. تنهَّدت ثم اعتذرت له وغادرت..

حين عُدت سمعتُ صوت طاهر وراجية قادميْن من المطبخ.. اختلستُ نظرةً سريعةً فوجدتُ طاهر يُساعد راجية في إعداد الإفطار ويتحرك بمرحٍ وبأريحيةٍ كبيرةٍ..

مـضى اليـوم عـلى أحسـن مـا يُـرام.. وحـين حـلَّ الليـل صعـدتُ لأنـام بينـما سـهرت ولاء تُتابـع التلفـاز..

أرخيـتُ جسـدي عـلى السريـر وتركتـه يبتلعنـي.. غرقتُ في التفكـير وتركـت عقـلي يقـودني إلى أماكـنَ غريبـةٍ لدرجـة أننـي نسـيتُ فيـما كنـت أفكـر إلى أن شـعرت بالنعـاس يتسـلل إلى تلابيـبِ مُخـي، ثـم بـين اليقظـة والنـوم سـمعتُ البـاب يُفتـح..

حاولـت أن أرفـعَ رأسي لأرى مَـن دخـل لكـن رأسي كان ثقيـلًا مثـل طـنٍّ مـن الحديـد.. عـاد البـابُ يُغلـق ثـم سـمعتُ صـوتَ المفتـاح يـدورُ في القفـل.. أدركـتُ أن مَـن دخـلَ قـد أحكـمَ الإغـلاقَ جيـدًا.

- مين؟

قلتها مرتعشًا..

سمعتُ صوت فحيحٍ مُخيفٍ..

لمحتُ ظلالًا كثيفةً تتجمَّع أمام وجهي..

لوهلةٍ توقَّف قلبي عن العمل..

دارت الظلالُ من حولي دورةً كاملةً..

حاولـت النهـوض لكـن جسـدي كان مشـلولًا يرفـضُ الاسـتجابة لي..

راحــت الظــلالُ تتخــذ شــكلًا بشريًّــا.. امــرأةٌ عجــوزٌ مُحترقــة الوجــه ترتــدي فســتانًا أســود طويــل الأكــمام ولهــا ذيــلٌ طويــلٌ يتلــوى مثــل الثعبــان..

نظرت لي دون أن تتكلم..

اقتربت مني ومدَّت يدها نحو وجهي..

حبستُ أنفاسي بأقصى ما أستطيع..

شــعرتُ بمخالبهــا تخــدشُ وجهــي.. ظننــتُ أنهــا انتزعــت جــزءًا منــه.

حاولــت أن أصرخَ.. حنجــرتي عجــزت وأعلنــت فشــلها.. وبهــدوء مــلاك المــوت طــارت العجــوز في الهــواء حتــى التصقــت بالســقف، ثــم صرخــت صرخــةً مُرعبــةً..

هذه المرة استطعتُ أن أصرخ..

صرختُ عاليًا..

عندئــذ أدركــتُ خطئــي الجســيم.. قفــزت العجــوز داخــل فمــي.. لا أعــرف كيــف.. لكنهــا في لحظــةٍ صــارت داخــلي.

- اااااااااه..

استفقت من هذا الكابوس إثر صرخةٍ عاليةٍ تردَّد صداها في الأرجاء.. ميَّزت صوت ولاء.. تمالكت نفسي بصعوبةٍ ونهضت.. أعلم أن هناك مصيبةً في انتظاري.

ركضتُ حيث ولاء.. أراها ملقاةً على الأرض بجوار التلفاز وهي ترتجفُ..

رفعتها بصعوبةٍ ثم أرحتها على المقعد.. صببتُ لها كوب ماء وتركتها تفرغه في حلقها قبل أن أسألها:

- خير.. إيه اللي حصل؟

بصوتٍ مُرتعشٍ وكلماتٍ مبتورةٍ حكت لي أن النعاس غلبها قبل أن ترى كابوسًا جاءتها خلاله امرأةٌ سوداء محروقة الوجه.. مهلًا.. هذا الكابوس ليس بغريبٍ عليَّ.. تركتها تُنهي كلامَها ولم أشأ إخبارها بأني مررتُ بنفس الظروف.. طمأنتها بأنها مجرد أضغاث أحلام.. سألتها:

- طاهر فين؟

تُخبرني أنه داخل غرفته.. فكَّرت أن أذهب لأطمئن عليه.. طرقت الباب.. ناديت:

- طاهر!

سمعتُ صوته يدعوني للدخول:

- ادخل!

دفعت الباب ودخلتُ.. ولكن طاهر لم يكن موجودًا.. غرفته في حالة فوضى رهيبةٍ وكأن معركةً حامية الوطيس دارت فيها.. الأثاث مُبعثر ومقلوب.. الأجهزة والأكواب مُهشمة.

جاءت راجية وولاء.. هالهما الوضعُ.. طلبتُ منهما ألا يقلقا ثم توجهتُ للبحث عن طاهر..

رحتُ أفتش غرفَ المنزل غرفةً غرفةً.. وصلتُ إلى حمَّام الدور الأخير.. لم أدخله من قبل.. كان بابُه مُتهالكًا تفوحُ منه رائحةٌ مُقززة.. ناديت:

- طاااااهر..

أجابني الصمتُ..

وضعت يدي على أنفي ثم دفعتُ الباب بقدمي ودخلتُ.. تحسَّست الحائط حتى ارتطمت يدي بمفتاح الإنارة.. ضغطتُ عليه بلهفةٍ شديدةٍ.. أضأتُ لمبةً صغيرةً تتدلى من سلكٍ أسود طويل.. كان نورُها ضعيفًا لكنه كافٍ لتميز الأرجاء جيدًا.. الجدران تقشر منها الطلاء واكتست بطبقة عفونة رمادية.. خيوط العنكبوت تغزو كل ركن

وكل قطعة بلاط.. هناك رأيت سخانًا قديمًا من ماركة مشهورة يبدو أنه معطوبٌ وبلا فائدةٍ.. في زاويةٍ كانت توجد قعدة إفرنجي زرقاء اللون بجوارها بانيو بنفس اللون يعلوه دش عبث الصدأ في طلائه .. ولا أثر لطاهر.

هممتُ بالرجوع لكن صوت قطرات الماء التي تتساقط داخل البانيو أوحت لي بفكرة.. تحركتُ بخطواتٍ حذرةٍ نحوه.. ارتعش نور اللمبة ثم تأرجحت في مكانها.. تسمَّرت في مكاني.. كان الماء يملأ البانيو حتى الحواف.. بدا لي للوهلة الأولى وتحت الإضاءة الضعيفة، خاليًا، صافيًا.. مددتُ يدي فيه فكسرت صفاءه.. أخرجتُ كشافًا صغيرًا وصوَّبته باتجاه القاع.. في الأسفل رأيتُ جسد طاهر عاريًا يرقد تحت الماء وقد تخشَّب جسدُه كالأموات.

أخرجتُ طاهر من الماء..

حملته إلى حجرته ثم بدَّلت له ملابسَه المبتلة بملابس أخرى جافةٍ ونظيفةٍ وسط لوعة راجية وذعر ولاء.. كان من المفترض أن أبثَّ لهما الطمأنينة لكنني في الحقيقة كنتُ أكثر هلعًا منهما.. أشعلتُ بجواره المدفأة الكهربائية

وأدرتهـا باتجاهـهِ ثـم خرجـتُ بينـما بقيـت ولاء وراجيـة بجـواره مـن أجـل رعايتـه.

في طريقـي للأعـلى سـمعتُ صـوت حفـرٍ يـأتي مـن مـكان المقـبرة.. لاحظـت أن هنـاك آثـار أقـدام حديثـة في النفـق الذي يقـودُ إليهـا.. نزلـت النفـق الـذي كان يتنفـس برائحـة المـوت.. توقَّـف الحفـرُ وخـفَّ الصـوتُ بعـد أن أربكتـه حركتـي.. صحـتُ:

- مين؟

لم يأتنـي رد.. أبـصرتُ معـولًا عـلى الأرض وحفـرةً جديـدةً تـم صنعُهـا اليـوم.. مـن جديـدٍ صحـتُ:

- مين موجود؟

مـن وسـط بقعـةٍ مظلمـةٍ خـرج هتلـر والعَـرق يتصبَّـب عـلى جبينـه ويسـيلُ حتـى صـدره.. قلـتُ:

- بتعمل إيه هنا؟

- حقي.. جاي آخد حقي..

أمسكتُه من ذراعه:

- طيب إمشي من هنا ومش عاوز أشوفك تاني..

سحب ذراعه، وقال بلهجة تهديد:

- أنا مش خارج إلا ومعايا حقي..

كنتُ أغلي من الغضب.. حاولتُ أن أشرح له مرض طاهر، لكنه كان مثل حمار وحشي لا يفهم غير كلمةٍ واحدةٍ ظل يُرددها.. حقي.. ثم تجاهلني وأمسك المعول وبدأ يحفرُ من جديدٍ.. حاولتُ منعه.. احتدم بينا النضالُ.. تطوحنا كثيرًا.. لا أذكر كيف دار القتال.. كان مثل الحلم.. فقط كل ما أذكره هو حركة المِعول..

المِعول يرتفعُ في الهواء.. المِعول يهبطُ فوق رأسي..

ثم أظلم كل شيء.

فتحت عينيَّ بصعوبةٍ..

كنتُ على ظهري وصوتُ صرير معدني يؤلم أذنيَّ.. السقف يتحرك بسرعةٍ فوق رأسي.. حين استوعبت الموقف أدركت أنني فوق محفةٍ يدفعها ممرضٌ داخل أروقة مستشفى.. حاولت الكلام لكن صوتي لم يخرج من حلقي.. أخرج الممرض هاتفه وانهمك في حديثٍ غاضبٍ مع زوجته.. دار بينهما شجارٌ حول مصروف البيت، ثم دروس الأولاد، وأخيرًا حول نوع الغداء.. لو كنتُ أملك القوة

عـلى إسـداء النصيحـة لأخبرتـه أن يتنـاول أي هـراءٍ سـتقوم بإعـداده ثـم يقتلهـا بعـد ذلـك.

إغـماءةٌ صغـيرةٌ وأفقـتُ لأجـدَ نفـسِي مـا زلـت عـلى المحفَّـة.. ثـوانٍ شـعرتُ بأيـدٍ قويـةٍ ترفعنـي وتضعنـي عـلى منضـدة الجراحـة.. ثـم حـين حاولـتُ أن أنطـق بكلمـةٍ شـعرت بوخـز إبـرة التخديـر في ذراعـي، وفي الهـواء رأيـت زوجًـا مـن عيـون الشـيطان تنظـران لي مـن وراء كمامـةٍ بيضـاء.

ليومـين متتاليـين ظللـتُ في المستشـفى.. خلالهـما أجريـتُ جراحـةً عاجلـةً لمنـع النزيـف وتعرفـت عـلى الممـرض الـذي كان يتحـدث في المحمـول.. كان يُدعـى عبـاس، مبتـذل المظهـر لكنـه بشـوش، وقـد تخـرج في المعهـد العـالي للخدمـة الاجتماعيـة، ولا يوجـد أي تفسـير منطقـي لكونـه يعمـل ممرضًـا سـوى أن ذلـك المستشـفى سـمك لـبن تمـر هنـدي.. عـلى الرغـم مـن هـذا فقـد كان خدومًـا إلى أقـصى درجـةٍ يكفـي أن تـبرز لـه ورقـة نقـود لـكي يتحـرك، غـير ذلـك هـو لا يسـمع ولا يـرى..

ولاء جاءتنـي قبـل مغـادرتي المستشـفى.. تمنيـت أن أشـم عطرهـا الحـاد المميـز فقـد كانـت رائحـة الكلورفـورم هـي

الرائحة الوحيدة التي ظللت أشمها أثناء وجودي.. للأسف خيبت أملي.. أتت من دونه هذه المرة.. أخبرتني أن هتلر هرب وأنهم لم يبلغوا الشرطة خوفًا من اكتشاف النفق.. وبالنسبة لطاهر فقد قامت راجية بحبسه في غرفته.

وهكذا أمضيت يومًا آخر ثم غادرت في الصباح.. في طريقي مررتُ على مكتبةٍ أحضرت منها مجموعةً من الكتب المستعملة التي تتحدث عن عالم الجن والقرين..

وصلتُ للمنزل حيث استقبلتني ولاء على عتبته.. بعد حضنٍ قصيرٍ وقبلةٍ طويلةٍ قالت:

- وحشتني!

- وإنتي كمان..

ثم سألتها:

- طاهر عامل إيه؟

أجابت بنبرةٍ حزينةٍ:

- من سيئ إلى أسوأ.

في تلك اللحظة جاءت راجية والتي عادت لتوها من الخارج:

- حمد لله على السلامة..

قالتها ثم أزاحت قناع التحفظ من على وجهها واحتضنتني..

سألتها عن صحتها وحالها، فأجابت أن (الحمد لله).. تركتها مع ولاء ثم ذهبتُ إلى طاهر.. رأيت القفل الضخم الموضوع على غرفته فأحزنني الأمر جدًّا.. دخلتُ عليه فوجدته يجلسُ وهو يحملُ فوق رأسه أحزان الكرة الأرضيةِ.. لاحظت أن وزنه قد انخفض كثيرًا.. تحدثت معه فكانت كل إجابته طبيعية.. بعد أن تركته تعمَّدت ألا أضع القفل.. نادى عليَّ:

- حط القفل!

ثم سبَّني.

- عاوز أشوفك!

كانت تلك الجملة الافتتاحية التي قالها هتلر حين أجبتُ اتصاله.. قلتُ:

- أنا لو شفتك هطحنك..

- ورحمة أبويا وأمي أنا مكنش قصدي أأذيك.. الضربة جت من غير قصد..

- على العموم مفيش كلام بيني وبينك..

هتف قائلًا:

- اسمعني يا أستاذ مجدي.. تعال اقعد معايا نتفاهم!

اكتفيتُ بالصمت.. عاد يقول:

- اقعد واسمع هقول إيه مش هتخسر حاجة!

أجبته بعد جدالٍ طويلٍ بيني وبينه:

- كمان نص ساعة على قهوة سنية..

وأنهيت المكالمة وخرجت متوجهًا إلى مكان اللقاء.. كان الوقتُ حينها في الثلث الأول من النهار والجو رطب به لمسة برد جميلة.. وصلت إلى القهوة التي لم يدبَّ فيها نشاطُ الزبائن بعدُ.. رأيتُ سنية في مكانها المُعتاد بينما سنفور يُهيئ المقاعد ويمسح الأرضية.. لمحت هتلر يُدخن شيشة وهو يتخذ لنفسهِ ركنًا منزويًا.. توجهتُ ناحيته بعد أن حييت سنية وسنفور.

- عاوز إيه؟

قلتها حين جلستُ في مواجهة هتلر..

- طيب اشرب حاجة الأول!

- اخلص!

أجاب بصوتٍ خافتٍ:

- المقبرة.

ضحكتُ:

- طب متاخدها.. حدّ مانعك!

شاطرني الضحك قبل أن يُقطب جبينَه فجأةً ويقول:

- أنا بتكلم جدّ.. وصلت لشيخ بس أجمد من ابن الحرام السيناوي و..

قطع حديثه حين جاء سنفور يسألنا عن طلباتنا.. طلب هتلر براد شاي وانتظر حتى انصرفَ، ثم قال:

- كل اللي أنا عاوزه تدخَّلني أنا وهو.. ووعد من أخ لأخوه، ليك تلت اللي هيطلع..

لمحت سنية تُتابعنا من بعيدٍ باهتمامٍ.. قلتُ هامسًا:

- يا بني آدم، افهم.. البيت مقلوب.. وطاهر عيان.. ولو أنا وافقت، راجية مش هتوافق..

- إنت لو عاوز هتتصرف.. دي حجة منك..

جاءنا صوت سنية ناصحًا:

- الحرام زي المية المالحة مبيرويش..

قال هتلر:

- سيبك من بنت الهرمة دي.. ليك النص قلت إيه..
أجيب الشيخ النهاردة.

- إنت سمعتني.. مش هكرر كلامي..

وتركته بعد تهديدٍ مني بقطع رقبته إذا ما رأيته مرةً أخرى.

الفَصْلُ السَّابِعُ

في المساء.. أُطفئت الأنوار كلها في آنٍ واحدٍ.. في البدء ظننت أن هذا انقطاع طبيعي للتيار الكهربائي لكن نظرةً من النافذة واكتشفت أننا المنزلُ الوحيدُ المُظلم.. تفحَّصت الوصلاتِ الكهربائيةَ.. كان كل شيء على ما يُرام وسليمًا تمامًا..لا يُوجد سببٌ منطقي لانقطاع الكهرباء..

اتصلت بشركة الكهرباء وأخبرتهم بما نحن فيه.. أخبروني بأنهم سيُرسلون مَن يتفحص كشك الكهرباء.. طبعًا لم يأتِ أحد.

وضعت ولاء القفل على باب غرفة طاهر ثم أخبرتني أنها ستبيت الليلة مع راجية.. تصنعت التفهم وتركتها تذهب..

صعـدتُ إلى غرفتـي مكتئـب الـروح.. كانـت تلـك المـرة الأولى التـي أبـات فيهـا هنـا بمفـردي.. كنـتُ أشـعرُ بوحشـةٍ شـديدةٍ.. أشـعلتُ كشـافًا صغـيرًا واسـتلقيت عـلى السريـر.. حاولـتُ أن أنـام لكـن النـوم كان يُجافينـي.. تذكـرتُ مـا اشـتريته مـن كتـب.. شـعرتُ برغبـةٍ ملحـةٍ في الاطـلاع عـلى هـذا العـالم الغريـب.. اعتدلـتُ في مـكاني ثـم تناولـتُ أحـد الكتـب ويُدعـى (عهـد الشـيطان).. في أول صفحـةٍ بـه كانـت تُوجـد رسـمةٌ تخيليـةٌ للجـن.. كانـت الرسـمة تُصـور الجـن مخلوقًـا ضخـمًا مُروِّعًـا لـه حراشـف حمـراء يقـفُ عـلى ثلاثـة أرجـل، لديـه عينـان مشـقوقتان بالطـول ووجـهٌ مخيـفٌ يتـدلى منـه لسـانٌ مشـقوقٌ كالثعابـين.. ملأتنـي هـذه الصـورة خوفًـا ورهبـةً..

ألقيـت الكتـاب وتناولـتُ آخـر.. قـرأتُ المقدمـة.. كانـت تقـول إن الجـن ظهـر قبـل الإنسـان بنحـو ٢٠٠٠ سـنة وإنـه أول مـن سـكن الأرض وعبـد اللـه فيهـا..

خلـف المقدمـة لمحـت بقعة دمـاء جافـة لونهـا كان يقتربُ مـن البنـي الداكـن.. تسـاءلتُ عـن أي إنسـان كانـت تجـري بـه تلـك الدمـاء وإلى أيـن صـار مصيرُه الآن.. هـل كان يجلـسُ مثـلي يقلـب الصفحـات أم أن مـا في الكتـاب اسـتهواه فحـاول

أن يُجرب إحدى التعاويذ مُستخدمًا دماءه.. انتابتني رغبةٌ ملحةٌ في معرفة صاحب تلك الدماء..

تصفَّحت الكتاب بسرعةٍ لعلني أجدُ ما يدل عليه..

استوقفتني معلومةٌ في المنتصف.. كانت عن شيء يُدعى (الأرياح).. وهي عبارةٌ عن موجاتٍ للجن تتخلل هالة الجسد البشري حين اقترابهم من البشر وتؤدي إلى الشعور بالتنميل أو القشعريرة وأحيانًا بالثقل.. كان هذا هو التفسير لنوبات القشعريرة والتنميل التي كانت تنتابني كلما اقتربت من طاهر.

لم أستطع الاستمرار فيما أفعل.. عُدت من جديدٍ أحاول النوم.. أغمضت عينيَّ بإصرار.. حركتُ رأسي.. تقلبت على الفراش كثيرًا حتى بات ملتهبًا ساخنًا.. أخيرًا نهضتُ بعد أن أبى النوم أن يزورني.. من حُسن الحظ أنه لا يفصلُ بيني وبين السطح غير سلم.. ارتديت ملابسي وصعدت مسرعًا متلمسًا هواء نظيفًا وبوحًا من الحرية.. في الأعلى كان القمرُ قد غاب تاركًا وراءه ظلامًا لا ينتهي..

استندتُ على جدارٍ جانبي ورحتُ أتأمل أسطح المنازل المائلة.. بدت لي الأسطح كشواهد قبور تتناثر بلا تنظيمٍ وبعشوائيةٍ وإن كانت مخيفةً وكئيبةً..

سـمعت حركـةً متوتـرةً مـن خلفـي.. أصابنـي الـروع.. هنـاك أحـدٌ غـيري.. التفـت إلى الـوراء وقلـتُ مُحـاولا تمالـك أعصـابي:

- مين؟

لم يُجبني القادم..

عـلى الأرضيـة الصُّلبـة لمحـتُ ظـلالًا عديـدةً مُختلطـةً.. تجمَّـدت.. لا أعلـم كنـهَ هـذا الـشيء الـذي يقـتربُ.. كنـتُ أرغـبُ أن أصرخ لكنـي خشـيت أن أتهـم فيـما بعـدُ بالجنـون إذا مـا كان الأمـرُ مجـرد ظـلال أو أوهـام عابثـة..

وبدافـع غريـزتي رحـتُ أقـرأ قرآنًـا وأسـتعيذ مـن الشـيطان والجـن وكل مـا يمكـن أن يُصيبنـي منـه أذى أو ضرر.

فجأة ظهرت ولاء..

تقدمت نحوي مبتسمةً..

تنفسـتُ الصعـداء.. مـن حُسـن الحـظ أني صمـدت حتـى النهايـة.. قلـتُ:

- مش قلتي هتباتي مع والدتك؟

لم تنبـس ببنـت شـفةٍ.. وضعـت إصبعهـا عـلى فمـي وألزمتنـي الصمـت.. ثـم أسـقطت الثـوب عـن جسـدها في

حركـةٍ واحـدةٍ.. انكشـفت أمامـي كـما ولدتهـا أمهـا.. التصقـت بي فصـارت أنفاسُـها الحـارة تلفـح صـدري..

وضعـتُ يـدي حـول مُحيـط خصرهـا السـاحر وقبَّلـت عنقهـا..

ماذا حدث بعد ذلك..؟

كيف شعرت ومتى فعلت..؟

لـن أذكـر.. فقـط يكفـي أن أقـول أن تلـك المـرة، هـي الأفضـل والأكـثر متعـةً، وفيهـا رُحنـا نتقلـب معًـا حتـى التصقـتْ أتربـة الأرض بجسـديْنا وأسـبغتنا لـذةً لا تنتهـي.

- اااااااااه..

قطعتْ كلَّ شيء صرخةٌ عاليةٌ مفزوعةٌ..

رفعـتُ وجهـي نحـو مصـدر الصـوت.. كانـت ولاء تقـفُ مـع راجيـة، وينظـران لي بذعـرٍ وهلـعٍ شـديديْن في حـين كنـتُ أنـا عاريًـا وأتمـرغ فـوق الأرض بمفـردي.

لم تُصدق ولاء أي كلمةٍ مما أخبرتها..

أقسـمتُ لهـا أننـي كنـتُ معهـا بينـما أقسـمت لي أنهـا قضـت الليـل كلـه مـع والدتهـا.. وأنهـت كلامهـا:

- ومن إمتى إحنا بنعملها فوق السطح زي البهايم!

احمـرَّ وجهـي بقـوةٍ وأحسسـتُ بنـارٍ تحرقنـي مـن الداخـل وأنـا أبحـثُ عـن ردٍّ مناسـبٍ، فلـم أجـد.. بعـد برهـةٍ سـألتها وأنـا أرتعـد:

- أمَّال أنا كنت مع مين؟!!

- عفريتة!!

قالتها راجية ثم تركتنا بعد أن صفقت خلفها الباب.

طـوال مـا بقـي مـن الليـل ظللـتُ غارقًـا في الأفـكار المُختلطـة.. حـين أتى الصبـاح كنـتُ قـد قـرَّرت أن كل مـا نحـن فيـه مـن مصائـب راجـع لمـا فعلـه السـيناوي بطاهـر.. ركبـتُ السـيارة وتوجَّهـت لـه.. تجـاوزتُ إكـرام، واقتحمـتُ عليـه خلوتـه.. رأيـتُ الدهشـة عـلى وجـه السـيناوي، وقـال:

- على مهلك.. الدنيا اتخلقت في ست أيام!

قلت وأنا أمسكه من تلابيب عنقه:

- عاوز أعرف إنت عملت إيه بالضبط في طاهر؟

- أنا مبعملش حاجة..

ثم رفع إصبعه لأعلى واستطرد بإيمانٍ كاذبٍ:

- ربنا اللي بيعمل!

في تلك اللحظة أتى إكرام ومعه كوب يانسون تتصاعد منه أبخرةٌ رماديةٌ.. تناوله منه السيناوي والذي بدوره ناوله لي قائلًا بودٍّ:

- اشرب الأول وريَّح أعصابك عشان نعرف نتكلم!

ترددتُ قليلًا.. رشفتُ رشفةً سريعةً.. من قال إنني أخشى الجن أو حتى الموت..

لمحتُ ابتسامةً ماكرةً على طرف فم السيناوي شعرتُ بعدها برعشةٍ باردةٍ تلف جسدي ثم راح يتحدثُ ويتحدثُ.. لم أعد أميِّز أو أفهم ما يقول.. كلماته تصلُ إلى أذني مثل الرعد.. تصنَّعت الفهم والإصغاء..

أشعرُ برغبةٍ عارمةٍ في الاستلقاء والنوم الآن.. تذكرتُ الآن أن الينسون كانت له رائحة غريبة.. نهضت مترنحًا.. أرى السيناوي ينقسمُ إلى ثلاثة رجالٍ يحملون ملامح مختلفة.. فركتُ عينيَّ حتى كدت أن أدميهما.. أحسستُ أنني فقدتُ الوعي لوهلةٍ.. لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك، فقط حين استيقظتُ كنتُ ممددًا بجوار سيارتي..

نهضتُ وأنا أسيرُ مثل المخمور.. ركبتُ السيارة ثم قدتها بلا هدفٍ.. لا أعرف أيضًا لماذا توقفت أمام مدخل السوق.. ربما هي تلك الأنوار التي سرقت عينيَّ..

خرجتُ من السيارة.. أخذتُ أدورُ في السوق مثل المجنون.. عاصفة من الوجوه تضرب عقلي وتدورُ من حولي بلا هوادة.. نجوم كثيرة تنفجر ثم تخبو.. لم أعد أميز بين الوهم والحقيقة.. أرى جديًا ينطح آخر.. وجدتُ ظلًّا تموَّج ثم تشكَّل سريعًا على هيئة امرأةٍ عجوز:

- ضعيف..

ثم أطلقت ضحكةً ساخرةً واختفت.. قلتُ مأخوذًا:

- إيه.. فيه إيه؟

اصطدمت بامرأةٍ تُخفي شَعرها بإيشارب أحمر.. لمعت عيناها:

- ابن آدم..

ثم ظهر لها جناحان كبيران وطارت في الهواء..

ماذا يحدث..

طفل وطفلة يلعبان على الأرض.. انقلبت ملامحهما فجأةً.. صاحا:

- مخلوق من طين..

أكمل فلاحٌ شاب:

- ضعيف..

واستطرد عجوز:

- ومهما حاولت..

ثم حرَّك غراب رأسَه نحوي وصرخ:

- روحك ملكنا..

فجأةً رأيت نفسي أنتقل في طريقٍ خالٍ وأسير وحيدًا..

كيف.. كيف..

خرج من تحت الأرض أشخاصٌ لهم وجوهٌ طويلةٌ ممسوحةٌ وقرونٌ معقوفةٌ يحوطونني.. أحدها يدنو مني.. قبل أن أبتعد عنه يطعنني بقرنه في معدتي.. صرختُ.. تهاويت.. أمسكتُ أمعائي التي قفزتُ من موضع الطعنة.. أطبقتُ عينيَّ من الألم وفي لحظةٍ تمنيت ألا أفتحهما أبدا.

لحظة انبلاج الفجر..

كان هذا هو الوقت الذي استعدت فيه وعي..

أرى ولاء تجلسُ على طرف السرير بجواري قلقة العينيْن والروح معًا.. تطبعُ قُبلة على خدي حين انتبهت لي:

- ألف سلامة.. قلقتني عليك!

أفهم منها أنني فقدت الوعي في السوق وأن بعض أولاد الحلال قد جاءوا بي إلى هنا مع طنٍّ من التساؤلات حولي والتي انتهت إلى إجابةٍ من ولاء بأنني تعرَّضت لحادثةٍ في رأسي من وقتٍ قريبٍ وهذه هي آثار مُترتبة عليها..

قبل أن أخبرها بما حدث سمعتُ طرقًا خافتًا ومتلاحقًا ثم صوت راجية.. تدخل ثم تخطو نحوي مع سؤالٍ سريعٍ عن أحوالي.. أخبرتها أنني بخير وأنها مجرد وعكة ليس أكثر.. انتظرتُ حتى خرجت ثم حكيت لولاء عن كل ما حدث.. كانت تستمعُ لي في مزيجٍ من الدهشة وعدم التصديق أو لنقل لعدم الفهم.. بعد أن انتهيتُ من حكايتي أخبرتني أنها ستنزلُ لتُلقي نظرةً على طاهر..

قـرَّرت أن أذهـب معهـا.. ارتديـت ملابـسي سريعًـا عـلى عجـلٍ ونزلـت..

في الداخـل كانـت غرفـةُ طاهـر تغـرق في الظـلام كـما اعتدنـا لكنـي سـمعت صـوت خـدش متواصـلٍ.. حاولـت إشـعال الأنـوار لكنهـا لم تعمـل.. أضـاءت ولاء كشـافًا كهربائيًّـا صغـيرًا.. عـلى نـوره الشـاحب رأينـا طاهـر يحفـرُ بأصابعـه عـلى الجـدران فتختلـط دمـاؤه ببقايـا أظفـاره في مشـهدٍ بشـع.. هرعـت نحـوه أنـا وولاء وقمنـا بالحيلولـة بينـه وبـين مـا يفعـل وسـط صراخـه ومقاومتـه الشرسـة.. قمنـا بعـد ذلـك بتقييـده حتـى نمنعـه مـن إيـذاء نفسـه.. في تلـك الأثنـاء جـاءت راجيـة والتـي جلسـت عنـد قـدم ابنهـا تبـكي بينـما هـو يتـصرف مثـل الشـخص المُصـاب بالـصرع..

ألقيـتُ نظـرةً عـلى مـا رسـمه طاهـر عـلى الجـدار.. كان عبـارةً عـن دائـرةٍ تحـوي داخلهـا رؤوس شـياطين يـأكل بعضهـا البعـض، وقبـل أن أحتـار في معناهـا دوَّت في ظـلام عقـلي كلمةٌ غريبـةٌ.. (برهـوت).

- الزَّار هو الحل!

قالتها راجية بانفعالٍ.. اقترحتُ عليها أن نلجأ للعلاج النفسي.. ردَّت فيما يُشبه العويل:

- ابني مش مجنون.. ابني ملبوس.

انفعلت:

- ابنك مجنون.. متضحكيش على نفسك.

أجهشت في البكاء وأخذت ترتجف.. نظرت لي ولاء بعتاب ولوم وهي تحتضن والدتها.. أشحتُ وجهي عنهما في سخطٍ.. نهضت راجية بلا مقدماتٍ واتجهت لحجرتها.. هرعت خلفها ولاء بينما مكثتُ في مكاني أتشاجرُ مع طنٍّ من الأفكار والكلمات..

بعد برهةٍ ظهرت راجية من غرفتها وقد ارتدت ملابس الخروج وأخفت وجهَها بنقابٍ طويلٍ أسود.. نظرت لي نظرةً طويلةً تحوي حقدًا ثم خرجت من المنزل..

جاءتني ولاء متكسرة الأعصاب، وجلست بجواري وهي تتنهد في تعبٍ ويأسٍ.. قالت:

- مكنش ليهم لازمه الكلمتين بتوعك..

زفرت:

- طلعوا غصبن عني..

ثم سألتُها:

- هي رايحة فين؟

- هتروح تجيب (العريفة)[1]

غابت راجية مدة طويلة حتى دبَّ فينا القلقُ وصرتُ على وشك الخروج للبحث عنها بناء على طلب ولاء، التي وكالعادة راحت تبكي.. لكن وحين الليل قد أوشك على بسط عباءته السوداء دخلت علينا.. خلعت النقاب عن وجهها فوضح عليها التعب بينما احمرَّ وجهُها وجحظت عيناها بشدةٍ..

جرت نحوها ولاء لتطمئن عليها بينما ظللت في مكاني أراقبُ ما يحدث:

- اتفضلوا!

قالتها راجية بصوتٍ عالٍ فدخلت امرأةٌ ضخمةٌ مستديرة الوجه، تُخفي خلف ملابسها السوداء نهديْن متدليين، وتنقش يديْها بالحنَّة.. ألقت علينا سلامًا دافئًا وهي تجول ببصرها في الأرجاء..

(١) العريفة: هي المسئولة عن طقوس الزار

رددت عليها السلام وأنا أفحصُ كل جزءٍ في وجهها الذي بدا بالنسبة لي صعب التذكر.. كانت ملامحُها بسيطةً لكن يكفي أن تدير وجهك عنها لتنساها سريعًا.. شيء غريب لم أعهد مثله من قبل.. علمت فيما بعد أنها العريفة.

دخلت بعد العريفة امرأتان أقل منها حجمًا وسنًّا، وتبدو عليهما ملامح الخنوع والطاعة.. كانتا تحملان حقائبَ جلديةً تكاد أن تنفجر من كثرة ما تحويه.

طلبت راجية من ولاء أن تفتح إحدى الغرف للعريفة.. علمت أيضًا أنهن سيبقين أربعة أيام عندنا.. قطعًا أنا لا أملك سلطة القبول أو الرفض.. فقط سوف أكتفي بدور المتفرج وأتابع كل ما يجري.

عند قرب منتصف ليلتهم الأولى طلبت مني راجية أن أصعد بطاهر إلى سطح المنزل..

استجبتُ لطلبها وتوجهتُ إلى طاهر.. كان جالسًا على طرف سريره وهو يتأوه.. حملته لاعنًا اليوم الذي جئتُ فيه إلى هنا..

حين وصلتُ للسطح كانت في انتظارنا العريفة وهي ترتدي فستانًا أبيض فضفاضًا مزينًا بمربعاتٍ حمراء،

وتضع عمامةً خضراء مشغولة ومزركشة بالخرز والأصداف الدقيقة..

أشارت لي بأن أضع طاهر على الأرض وتحديدًا داخل دائرةٍ قامت برسمها.. كانت الدائرةُ مرسومةً باللون الأحمر وقد امتلأت من الداخل بأرقامٍ وحروفٍ تمت كتابتها مقلوبةً..

أسكنت طاهر داخل الدائرة ثم توجهت إلى راجية وولاء اللتيْن اكتفتا بالوقوف بالقرب من الجدار الخارجي للسطح..

راحت التابعتان تدقان على دفوفٍ كبيرةٍ وتدوران حول طاهر ببطءٍ.. وشيئًا فشيئًا رحن يزدن من إيقاعِ الدفوف والحركة على نحوٍ تصاعدي..

أشعلت العريفة البخورَ من طاسةٍ نحاسيةٍ فتصاعدت أجنحة الدخان الرمادية وحلقت في الهواء.

- الأميرة، هاك الجاوي، هاك البخور..

العريفة تُردد هذا النشيد بلا توقف.

نظرت نحو ولاء التي انكمشت داخل نفسِها بينما راجية تتابعُ ما يحدثُ في شغفٍ.

طاهـر أفـاق مـن تخشُّـبه وبـدأ يـدورُ حـول نفسـهِ ببـطء ويتحـرَّك مثـل الزومبـي.. اتسـعت عينـا العريفـة وأحـضرت ديـكًا أسـود ذبحتـه فـوق رأس طاهـر وجعلتـه يـشربُ مـن الـدم الحـار الـذي ينسـابُ عليـه.. بعـد أن انتهـت مسـحت فـم طاهـر بمنديـلٍ فـصرخ هـذا الأخـيرُ صرخـةً مدويـةً ثـم انهـار عـلى الأرض بـلا حـراكٍ.

طلبـت منـي العريفـة أن أحملـه وأعـود بـه إلى غرفتـه.. نفـذت مـا قالـت في حـين انشـغلت هـي بحديـثٍ هامـسٍ مـع راجيـة.

اليوم الثاني..

تـم تكـرار كل مـا سـبق غـير أن العريفـة بدَّلـت فسـتانها الأبيـض بآخـر أصفـر اللـون، وذبحـت معـزةً سـوداء.

اليوم الثالث..

كان هـو اليـوم الأخـير.. أخبرتنـا العريفـة أنـه اليـوم الـذي سـتُخرج فيـه الجـن مـن جسـد طاهـر.. ارتـدت فسـتانًا أحمـر ووضعـت حـول خصرهـا حزامًـا عريضًـا أزرق..

أشعلت نارًا عظيمةً ثم طلبت مني أن أضع طاهر داخل الدائرة.. صاحت ولاء:

- هتعملي فيه إيه؟

حدجتها العريفة بنظرةٍ غاضبةٍ دون أن ترد.. التفتت نحوي بعدما انتهيت من إسكان طاهر الدائرة:

- نزلها تحت أحسن!

ثم شدَّت وثاق طاهر الذي شاهت عيناه وسال الزبدُ على جانب شدقيْه وراح ينتفضُ بشدةٍ..

أفلتت مني ولاء حين هممتُ بأن أنزلها، وحاولت أن تفك وثاقه لولا أن منعتها راجية، وقالت فيما يُشبه الرجاء:

- سيبيها.. أبوس إيدك.. عاوزين نخلص!

تبادلت كلاهما النظرات والصراخ.. صاحت ولاء بأن هذا ضربٌ من الجنون.. نحَّيتها جانبًا بصعوبةٍ.. أعلم يا عزيزتي أن هذا ضربٌ من الجنون لكن الاعتراض الآن صار بلا فائدةٍ.. فقط اصمتي وتابعي مثلي ما سيحدث.

قالت العريفة بصوتٍ غليظٍ:

- أجب يا روقيائيل أنت وأعوانك العلوية، أجب يا أحمر أنت وخدامك الأرضية، بحق الملك سمسمائيل الملك الموكل بثوائم العرش طيكل، يا كسفيائيل أنت وأعوانك العلوية، أجب يا ميمون أنت وخدامك الأرضية، أجيبوا يا معاشر الأرواح الروحانية العلوية والخدام وبحق الأسماء العظام.

ثم أخرجت سوطًا من الجلد المجدول ولوَّحت به في الهواء فأصدر فرقعته المُخيفة..

- اخرج منه يا معلون.. اخرج!

حدث كل شيء بعد ذلك كلقطاتٍ متقطعةٍ بالأبيض والأسود.. صرخات تهديد ووعيد.. السوط يمرحُ فوق طاهر عدة مراتٍ.. لحم ممزق.. لكماتٌ على الجسد والوجه.. أسنانٌ تطير في الهواء.. دماء متناثرةٌ.. فجأة الحبال حول معصم طاهر تتمزَّق.. الوحش الهائج يتحرَّر.. ومن ثم العريفة تطيرُ في الهواء بعد أن طحنها طاهر بقبضته.. أوشك أن يفتك براجية وحاصرها قبل أن تهرب.. بصعوبةٍ شديدةٍ استطعت أن أقيده وأمنعه أن يُسبب المزيد من الأسى، بينما هوت ولاء على الأرض وقد أصابتها صدمةٌ عصبيةٌ.

خيَّم الصمتُ على المنزل بعد أن رحلت العريفة وبعد أن تقاضت أجرًا مُضاعفًا جرَّاء ما أصابها من أذى.

الأيام التالية قمنا بحبس طاهر في غرفته، واقتصر اتصالي به على إدخال الطعام إليه ثم الخروج سريعًا.. للأسف استحال إلى كائنٍ مُخيفٍ ولم يعد يتحدث فقط هو يصرخُ، ويصرخ.. ويصرخ.

ولاء أصابها الضمورُ وكذلك راجية.. صلة ما بينهما تنشأ واستحالت الأم إلى شبحٍ يغدو كل ليلة.

أحيانًا كنتُ أتجوَّل بالسيارة محاولًا قتل الوقت ولأخذ متنفسٍ من الحرية والخروج من جوِّ الكآبة والحزن.

- بيتهيالي إنت ندمان إنك جيت معايا!

قالتها ولاء بصوتٍ متهدجٍ وعينيْن متوجستيْن.. كنتُ وقتها أنظر من شرفة المنزل وأراقبُ إسدال الليل أستاره فوق أسطح منازل القرية المنخفضة.. التفتُّ إليها:

- آه!

لا داعـي للكـذب أو لتصنُّـع الشـهامة والفروسـية.. لسـتُ أنـا هـذا الرجـل.. أنـا بالفعـل أشـعر بالنـدم وأتمنـى لـو كنـتُ خنقتهـا.. اسـتطردت:

- بفكَّر أرجع!

أحاطتني بذراعيْها ثم أسندت رأسها إلى كتفي.. قالت:

- وتسبني هنا لوحدي!

أطلقت تنهيدةً، ثم أرسلت يدي في شَعرها:

- مش عارف..

- مش عارف إيه؟

- أنا بقول نرجع وننسى اللي حصل هنا ونكمل حياتنا!

تُخبرني أن ذلك ليس خيارًا بالنسبة لها..

للأسـف يـا عزيـزتي بقـائي أيضًـا لم يعـد كذلـك.. في الصبـاح كنـتُ أركـبُ سـيارتي وأغـادر.. قبـل ذلـك ودَّعتنـي ولاء أمـام بوابـة الخـروج.. احتويتهـا بـين ذراعـيَّ حـين قبَّلتهـا مُودعًـا.. شـعرتُ بجسـدها يرتعـشُ داخـلي ودموعهـا تتسـللُ عـبر قميـصي وتُبلـل صـدري.. تتـضرع:

- متسبنيش!

أجبتها هامسًا:

ـ إحنا لسَّه فيها.. ارجعي معايا!

لم ترد عليَّ..بلعتْ دموعَها ثم انسلَّت من بين يديَّ.. تركتْني وعادت مهرولةً.. ولسببٍ ما شعرت أن هذه آخر مرةٍ سأراها.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

لم يكن يجدر بي أن أتركها..

هكـذا فكَّـرت حـين عُـدت وبعـد أن ألقيـتُ بنفـسي عـلى السريـر الـذي اهتـزَّ وارتعـش كثـيرًا..

دفعـتُ وجهـي باتجـاه السـقف وشردتُ حتـى أعـماني الوقـت.. أيقظنـي رنـينُ الهاتـف يـأتي مسـعورًا.. كان مديـر التحريـر يسـتفسرُ عـن تأخـري في العـودة للجريـدة.. اعتـذرت لـه وأخبرتـه أننـي سـأكونُ موجـودًا أمـام بـاب الجريـدة مـن الصبـاح الباكـر..

وبالفعـل عُـدت إلى روتـين حيـاتي مثـل نحلـةٍ بائسـةٍ تنتظرُ أن يقتلهـا دبـور.. لكـن كان لا يـكاد يمـرُّ يـومٌ دون أن يتملكنـي

الحنين لولاء، على الرغم من أنني حاولتُ محوَها من عقلي إلا أنها ظلت كامنةً وراسخةً في وجداني..

كنتُ فيما مضى أقضي النهار في العمل، والليل في السهر أو محاولة الانتحار بطريقةٍ تجعلني رائعًا.. الآن أنا فقط أتمدد فوق السرير أتأمل السقف وأفكر فيها.. أخشى أن أبدأ العويل عليها.. حقيقي لقد سالت من عيني دمعةٌ أو دمعتان لكنهما بالتأكيد بسبب لفحة هواء!!..

أفكر في أن أركب سيارتي ولا أتوقف حتى أصلَ إليها.. لكن أظن أن عودتي بهذه السرعة وتلك الطريقة ستجعلني أبدو بمظهر الذليل..

كان التردد يقفُ كل مرةٍ حائلًا بيني وبين مكالمتها.. لكني أكملت الاتصال

أسمع جرس المكالمة مثل دقات قلبي أثناء محاولتي استدعاء الكلمات التي سأبدأ بها حديثي.

- أنا محتاجك..

هكذا قلتُ حين سمعتُ صوت أنفاسها على الطرف الآخر..

- إزيك يا مجدي!

- عامله إيه؟

- كويسة..

قالتها بوهنٍ ومرضٍ..

- مال صوتك؟

- مفيش بس شوية إرهاق.. عامل إيه؟

- أنا تمام..

ثم سكتت.. لم ترد عليَّ بشيء.. تنحنحتُ وقلتُ:

- بصِّي.. أنا.. أنا كنت.. قصدي الجرنال إداني أجازة ولو إنتي محتجاني في حاجة أنا تحت أمرك..

- لا.. أنا كويسة.. خليك!

سكبت جردلًا مليئًا بالثلج فوق وجهي الذي التهب حين قالت ذلك.

- أنا جايلك النهاردة..

لم يعد هناك بدٌّ من الاعتراف بحاجتي لها.. أنهيت المكالمة ثم أعددتُ حقيبتي بسرعةٍ..

يقرع شخصٌ ما الباب.. لماذا دونًا عن كل الأوقات يأتيني- الآن مثل هذا الزائر.. وضعت حقيبتي جانبًا ودون أن أسأل مَن الطارق فتحتُ.. رأيتُ شبح رجلٍ يقف

منتصبًا ويختفي بعيدًا عن ضوء مصباح الردهة.. قلتُ بحنقٍ:

- مين؟

تحرَّك إلى الأمام فدخل في دائرة الضوء.. أجاب:

- إزيك يا أستاذ مجدي!

أعرفُ هذا الوجه لكن لا يحضرني الاسم.. أجبتُ:

- أهلًا وسهلًا يا..

- أنا حسن.. مش فاكرني؟

قال ذلك حين لمح تأخري في نطق اسمه.. قلتُ:

- أكيد فاكرك..

ثم لاحظت أنه يمد لي يده ليصافحني.. صافحته في حين عاد يقول:

- أنا جاي أشكرك على اللي عملته معايا..

- لا.. ولا يهمك.. ده شيء بسيط.. المهم والدك عامل إيه؟!

ثم تذكرتُ أنني أشرفتُ على دفنه بنفسي فاستدركتُ بسرعةٍ:

- قصدي أكيد زارك في الحلم ولقيته في الجنة..

ابتسم.. قال ببطءٍ:

- هو دلوقتي بين إيدين اللي خلقه..

تذكرتُ أني لم أدعه للدخول.. أفسحتُ له:

- آه.. آسف اتفضل ادخل.. وأخبارك إيه.. خرجت إمتى؟

- من أسبوع..

قالها ثم ولج إلى الداخل.. جلس على مقعدٍ في منتصف غرفة الجلوس ثم دار بعينيْه سريعًا فيها حتى استقرَّ بصرُه على حقيبة سفري، بينما قلتُ:

- ألف مبروك..

لم أدر بعد ذلك ما أقول.. كنتُ مُتعجلًا وأرغب في رحيله، لكن المفترض أن أجلس معه حتى يُنهي زيارته.. قررتُ أن أصبر معه عشر دقائق بعدها سوف أقوم بطردِه.. وكان هذا ما حدث.

وصلت إلى ولاء عصرًا.. استقبلتني أمام المنزل بابتسامةٍ كئيبةٍ:

- متوقعتش إنك هترجع..

رددت عليها وأنا أتفرس ملامحها التي غدت أكثر شحوبًا:

- وأديني خيبت ظنك..

- رجعت ليه.. عاوز تنام معايا؟

قاسية معي أكثر من اللازم هذه المرة.. قلتُ:

- ظنك تاني مش في محله.. أنا رجعت لأني مش حاسس بالحياة من غيرك..

ابتسمت ابتسامةً مثل إشراقة شمس نهار ربيعي وجذبتني للداخل.. وهكذا أمضيتُ معها بقية اليوم دون أن نتطرق للحديث من قريبٍ أو بعيدٍ حول طاهر.. هو في أسوأ حال ولا داعي لتوقع الأحسن.. ودون أن أدخل عليه أنا متأكد أنه الآن ممدَّد على الفراش يُحدق في الظلام ويُجادل أشباحًا ومسوخًا غير موجودة.

ضرب المطر نافذة غرفة نومنا فاستيقظت ولاء مذعورةً.. توقفت نظراتُها الزائغة على وجهي حين انتبهت لها.. ابتسمت لها ابتسامة طمأنينة:

- متخافيش.. ده المطر!

حاولت أن تتكلم لكن الكلام تجمَّد في حلقها.. ناولتها كوب ماء نهلت منه كمن لم تشرب منذ سنواتٍ.. وضعت الكوب جانبًا وقد هدأت قليلًا.. بعد أن استجمعت عقلها ولملمت شتات نفسها حكت لي أنها رأت حلمًا مُزعجًا.. رأت طاهر يسيرُ محنيَّ الظهر، وهو يرتدي جلبابًا من الخيش، ويحملُ فوق ظهره شيطانًا يأكلُ من رأسهِ..

- أضغاث أحلام يا حبيتي و..

قطعت عبارتي صرخةُ طاهر وهي تأتينا محمومةً.. نهضت ولاء من الفراش.. اعترضت:

- سيبك منه.. هيصرخ صرختين تلاته وبعدين سيهدأ..

لكنها لم تلتفت لكلامي وارتدت شالًا ثقيلًا واتجهت للأسفل.. تتبعتُها لا لشيء سوى أنني أخشى عليها..

استقبلتنا زمجرةٌ غاضبةٌ من طاهر.. ولاء نظرت من فتحة الباب الصغيرة.. قالت:

- مش شيفاه..

أزحتها جانبًا ونظرتُ.. الغرفة تبتلعها ظلمةٌ سرمدية.. لا شك أنه يختبئ داخلها.. فتحت قفل الباب ودخلتُ.. دست في شيء لزجٍ قبل أن تنفجر قنبلة من الروائح الكريهة..

ضغطت زر النور.. كان حذائي مغروسًا وسط كتلة بنية مائعة هي عبارة عن فضلات طاهر..

حركت قدمي باشمئزازٍ عدة مرات ووضعت يدي على أنفي.

في ركن الغرفة كان طاهر يقفُ منتصبًا في مواجهة الحائط وهو يُولينا ظهره ويتطوح يمينًا ويسارًا، بينما يخرج منه صوتٌ مثل أهازيج الناي.. نادته ولاء وهي تقتربُ منه:

- طاهر.. إنت بخير؟

لم يُجبها.. اكتفى بأن طوَّح جسده إلى الأمام قليلًا ثم إلى الوراء.. ثم التفت نحونا فجأةً..

تجمَّدت في مكاني..

كان وجهه قد استحال إلى لوحةٍ بشعةٍ من الرعب وقد انقلبت عيناه بيضاوين مشقوقتين بالطول..

وثـب نحـوي بغتـةً.. يرمينـي في الهـواء بقـوةٍ لم أعهـده بهـا.. العـالم يـدورُ مـن حـولي سريعًـا دون أجـد الفرصـة للـصراخ الطبيعـي.. مـن حقـي أن أصرخ ولـو مـرة..

ارتطمـت بالجـدار قبـل أن تسـقط لوحـةٌ زيتيـةٌ فـوق رأسي.. سـتار رمـادي يهبـط أمامـي، ووعـي ينسـحبُ تدريجيًّـا مـع خيـطٍ مـن الدمـاء الدافئـة يسـيلُ مـن جـرح جبهتـي..

طاهـر يقـتربُ منـي بوحشـية ضبـعٍ عـلى وشـك تمزيـق فريسـته..

لمحـتُ سـكينًا في يـده حـين لمـع نصلهـا الحـاد.. مـا زال السـتار الرمـادي يهبـطُ.. يـا إلهـي.. لمـاذا لا ينتهـي سريعًـا.. لا أرغـب أن أكـون واعيًـا حـين تخـترق السـكين معـدتي أو تقطـع عنقـي.

ولاء تعـترض طريـق طاهـر وتقـف حائـلًا بينـي وبينـه.. لا.. ارجعـي.. إنـه ليـس أخـاكي..

طاهـر يـضربُ رأسـها بقبضتـه.. تراجعـت للـوراء وهـي تضـع يدهـا عـلى صدغهـا، لكنهـا مـا زالـت تدافـعُ عنـي بجسـدها.. سـقط عنهـا الشـال أمامـي.. حاولـت أن أقفـزَ عليـه.. عجـزتُ.. بالـكاد رفعـت يـدي.. بصعوبـةٍ نطقـت:

- اهربي!

لم تستجب لرجائي.. قالت بتوسلٍ وهي تمدُّ يدها للحيلولة بيني وبين طاهر:

- ارجع يا طاهر!

أجابها بصوتٍ أشبه بالفحيح:

- طاهر مين؟

ثم أمعن النظر فيها طويلًا وزمجر، ثم ركل مقعدًا في اتجاهها، فانحنت لتتفاداه وهي تحمي وجهها بيدها، وقبل أن تعودَ لوضعها كان قد انقضَّ عليها ولكمها بقسوةٍ في معدتها جعلها تطيرُ وتصطدم بالحائط.. انفجرت الدماء من فمها وتلوت على الأرض..

انحنى نحوها ثم قبض على شَعرها ورفعها بقسوةٍ.. حركت رأسها بوهنٍ في محاولةٍ يائسةٍ للإفلات منه.. ضرب رأسها في الأرض بقوةٍ ساحقةٍ كمن يُحاول تحطيم جوزة هند.. ندَّت منها آهةٌ مكتومةٌ مع صوت هدير عظامها.. سكن جسدُها تمامًا ثم راحت بركة صغيرة من الدماء القانية تتوسع من حولها ببطء.. شديد.

تابعت طاهر وهو يقتربُ مني مزمجرًا كالمسعور..

الموت يبدو كريهًا الآن..

ثم وبلا إنذار سقط طاهر على الأرض وقد أصيب بتشنجاتٍ عنيفةٍ فبدأ أشبه بحيوانٍ مفترسٍ على وشك الاحتضار..

بعد دقائق كنتُ قد استعدت السيطرة على نفسي.. نهضت مترنحًا باتجاه ولاء.. رأيتها شاحبة وتبدو في النزع الأخير..

في تلك اللحظة دخلت راجية.. هالها ما حدث وتجمَّدت في مكانها مثل صنم.. نظرت إلى طاهر الذي رقد مفتوح العينيْن وقد غرق في بحرٍ من العرق الأسود.. اقتربت مرتعشةً ومدَّت يدها تتحسس وجه ولاء.. بكت في مرارة .. صرخت:

- اااااااه..

ثم هوت فاقدة الوعي.

لم أنتظر أكثر من ذلك.. حملت ولاء وذهبت بها إلى المستشفى.. تم وضعها في غرفة العناية المركزة بين الحياة والموت، وكلتا الكلمتين (الحياة والموت) لا تعنيان لي أكثر من مجرد حروف منطوقة.

أمضيت اليوم كله بجوار غرفتها حيث تم منع الدخول إليها..

في اليوم التالي وبمساعدة عبَّاس صرتُ قادرًا على رؤيتها.. ارتديتُ كمامة على فمي وجلستُ بجوارها.. كانت مستلقيةً في سريرٍ بينما قناع الأكسجين يُغطي نصف وجهها، وقد اتصل بجسدها كل أنواع المعدات والأجهزة الطبية الغريبة التي لا أعرف مُسمَّى لها..

تأملتُ وجهَها.. ربما كانت هذه المرة الأولى التي أتأملها فيها.. قسماتها تبدو مختلفةً وعليها سكينةٌ وسلام لم أعهدهما من قبل..

دخل عباس وقال بتوترٍ:

- قدامك خمس دقايق..

ثم خرج وتركنا.

أمسكت يدها.. باردة لكنها ملأت قلبي دفئًا:

- ولاء!

وكأنها سمعتني فتحت عينيْها بصعوبةٍ.. فرحت كما لم أفرح من قبل.. قلتُ بلهفةٍ:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي..

- أنا فين؟

قالت وعيناها تزيغان.. أجبتها:

- متقلقيش هتكوني كويسة..

ابتسمت بصعوبةٍ:

- بجد..؟

- طبعًا.. إنتي عارفاني مبعرفش أكدب..

- حسَّه أن..

وبترت كلامها ثم أدارت وجهها في الأرجاء قبل أن تستطرد بأسفٍ:

- نهايتي هتكون هنا..

- بطلي تخاريف.. إنتي زي الفل..

قلتها بصوتٍ طبيعي محاولًا إخفاء الألم الذي اعتصر صدري.. رفعت يدها بصعوبةٍ نحو وجهي تحاول أن تلمسه لكن أصابعها ارتعشت قبل تسقط يدها فجأةً.. تناولتها بحنانٍ ثم وضعتها على خدي.. ابتسمت بوهنٍ:

- طول عمرك أبيض من جوَّه..

أحسستُ بترقرق الدموع في عينيَّ.. دنوتُ بوجهي منها وقبَّلتها:

- وإنتي طول عمرك قمر..

- طاهر عامل إيه؟

- محبوس في البيت..

- إوعدني إنك هتنقذه!

عادت تقول بوهنٍ حين لم أجبها:

- إوعدني يا مجدي!

أومأت لها برأسي.. ابتسمتْ مستريحةً.. حاولتْ أن تتكلم من جديدٍ.. توقَّف الكلام في حلقها.. انتابتها رعشةٌ قويةٌ ثم سقط رأسها إلى الوراء وتركتني وحيدًا.. إلى الأبد.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

تابعـتُ بمـرارةٍ كالعَلقـمِ وهـم يضعـون ولاء في القـبر ثـم يُغلقونـه عليهـا..

لـن أراهـا بعـد الآن.. كل ضحكاتهـا، أمانيهـا، وأحلامهـا، اختفـت وابتلعهـا هـذا المـكانُ الضيـق المُظلـم..

تمنيـتُ أن أعـودَ بهـا وأدفنهـا في القاهـرة بعيـدًا عـن هـذه القريـة اللعينـة.. وضعـتُ يـدي عـلى وجهـي وضغطـتُ حتـى كـدت أن أسـحقه..

فجـأةً أحسســتُ بأمــرٍ غريــبٍ يحـدثُ.. رفعـت وجهـي نحـو الأعـلى.. كانـت الشـمس تتحـركُ مـن مكانهـا ثـم تختفـي وراء غيمـةٍ سـوداء تُشـبه رأس الشـيطان، فحـلَّ الظـلام بغتـةً وهبـط علينـا مثـل المـوت..

توجهت الأبصارُ نحو السماء التي اتخذت شكلًا مُرعبًا، وساد الهلعُ والفوضى أرض المقابر..

أشعل البعضُ كشافاتٍ صغيرةً فبدَّدت جزءًا من الظلام..

تحرَّك غطاءُ مقبرة ولاء وانزاح جانبًا.. من داخل القبر بدا يتصاعدُ ضبابٌ أبيض.. خرجت يدٌ من وسط الضباب فصرخ الناس وفرُّوا هاربين وهم يُحوقلون ويُبسملون..

ولاء تخرجُ من القبر وهي ملفوفةٌ في الكفن الأبيض.. ازداد الضبابُ وصار أكثر كثافةً حتى اختفت ولاء داخله..

درتُ حول نفسي لأكتشفَ أني ضائعٌ ووحيدٌ.. صوتُ فحيحٍ غاضبٍ يأتيني من كل مكان.. ناديتُ:

- ولاء!

لا إجابة..

شعرتُ بشيء يتسلقُ قدمي.. نظرتُ إلى الأسفل.. نباتٌ غريبٌ التفَّ حول ساقي مثل الثعبان.. منعني تمامًا من الحركة.. حاولتُ أن أنزعه.. أشواكه أدمت يدي.. ثم قبضتْ يدٌ قاسيةٌ على يدي.. وجه ولاء الميت يبرزُ من وسط الضباب وتُحدق بي بعينيْن بيضاويْن مائعتيْن.. رددتُ في هلعٍ:

- ولاء!

دارت من حولي مثل مفترسٍ يتخير موضع التهام فريسته.. النبات الغريب يزدادُ ويلتفُّ حول كامل جسدي.. صرتُ مغروزًا في الأرض عاجزًا عن تحريك أي عضلةٍ لديَّ..

ولاء تُمسك برأسي.. أرى مخالبَ سوداء لها.. تخدشُ رأسي وتُمزق جزءًا من وجهي ثم تخنقني بلا رحمةٍ.. أنفاسي تضيعُ بسرعةٍ.. الألم حاد في صدري.. أشعرُ أنني أحترقُ دون لهيبٍ أو نارٍ.. حاولتُ أن أصرخَ.. أسقطتني على الأرض وهي تُلصق وجههَا بوجهي.. مخيفةً.. حاولتُ أن أصرخ.. فشلتُ.. نجحتُ.. صرختُ.

رنينُ الهاتف انتزعني من هلوستي..

أجفلتُ للحظةٍ حتى استوعبت.. تفحَّصت رقم المتصل.. لا أعرفه.. وضعت طرف الهاتف على أذني:

- نعم!

- إزيك يا أستاذ مجدي!

صوتُ رجلٍ على الطرفِ الآخر.. يبدو لي مألوفًا بعض الشيء لكن لا أميِّزه:

- مين معايا؟

- أنا حسن.. أخبارك إيه؟

يُخبرني أنه يشعرُ بالقلق حيالي.. أجبته باقتضابٍ:

- أنا كويس!

لاحظ بالتأكيد نبرة صوتي وطريقتي في الحديث لذا سأل:

- خير يا أستاذ مجدي.. فيه حاجة؟

لم أكن أرغبُ في الاستطراد معه، لكني وجدتُ نفسي أخبره بأن زوجتي ماتت.. واساني بسرعةٍ، ثم أنهى المكالمة بسرعةٍ على عكس ما توقعتُ.. أزحته من تفكيري، ثم انتظرتُ حتى انتهت عملية الدفن وراح المشيعون ينسلُّون واحدًا تلو الآخر..

اتخذتُ لنفسي طريقًا مختلفًا وسرتُ فيه.. بعد أن خرجتُ من المقابر شعرتُ بألمٍ في رأسي.. تحسستُ رأسي مُستكشفًا.. آثار مخالبٍ محفورة فيها.. ثم هوى قلبي وسقط في حفرةٍ باردةٍ.

- شدِّ حيلَك يا أستاذ مجدي!

فُوجئتُ بحسن أمامي في اليوم الأخير للعزاء وهو يقولُ ذلك.. لا أعرفُ كيف اهتدى إلى عنواني لكن ببعض التخمين قد يكون توصَّل إليه من الجريدة التي أعمل بها.. على الرغم من عدم معرفتي الوثيقة به إلا أنني أحسستُ ببعض الغبطة لوجودِه..

ظلَّ بجواري حتى انتهى اليوم واستعدَّ للرحيلِ.. كانت راجية قد اشتدَّ مرضُها وأصيبت ببوادر انهيارٍ عصبي وتم حجزُها في المستشفى، لذا طلبتُ منه المبيت معي.. رفض في البداية وأخبرني أن لديه مشاغل كثيرة.. صمَّمتُ على موقفي ورفضتُ أن أحيد عنه فاستجاب.. سرتُ معه وقلبي مثقلٌ بالهمِّ والغمِّ.

كانت صرخة طاهر التي جلجلت هي أول ما استقبلنا.. لم أخفْ أو حتى يطرفُ رمشٌ في جفني، بينما التوترُ أصاب حسن، ولمحتُ السؤال على طرف لسانه، لكنه ألجمه والتزم حُسن الأدب..

دوَّت صرخةٌ أخرى أجفل لها حسن.. قلتُ وأنا أضع يدي على كتفهِ:

- ده طاهر..

ثم حكيتُ له باختصارٍ شديدٍ ما جرى له.. طلب أن يرى طاهر.. وافقتُ على مضضٍ..

أدخلته على طاهر الذي كان مُستلقيًا على الأرض مثل الأموات.. راح حسن يتأمل الرسم الموجود على الحائط.. سألني:

- هو اللي رسم ده؟

أومأتُ برأسي.. تجهَّم وجهُه وعاد يتفحَّص الرسم مرةً أخرى:

- ده رسم شيطاني!

قالها في وجهي فشعرتُ أنه لكمني في معدتي.. استطرد قائلًا:

- والدي كانت له كرامات وعارف في أمور الجن.. أنا عندي خبرة لا بأس بها.

جذب كلامُه اهتمامي.. عاد يقول:

- هو بيحاول يبلغكم رسالة..

أخبرته بشأن الكلمة (برهوت) التى دوَّت في عقلي حين شاهدتُ الرسمة للمرة الأولى.. نظر لي وقد انقلبت ملامحُه إلى الجدية الكاملة:

- عاوزك تحكي لي كل حاجة وبالتفصيل المملّ!

دهشتُ جدًّا للتغيير الذي طرأ عليه.. لكن وكما يُقال في الأمثال حكيتُ له من طق طق إلى سلامو عليكو.. كان وجههُ يمتقعُ تارةً ويحمرُّ تارةً أخرى وهو يستمعُ لما أقولُ صامتًا ودون أن يُبدي أي ملاحظةٍ..

بعد أن انتهيتُ من كلامي أشعل حسن بعض البخور وراح يُردد ترنيمةً غريبةً.. مع كل كلمةٍ كان ينطقُ بها كان طاهر ينتفضُ، ثم انتصب فجأةً واقفًا بلا حراكٍ.

- برهوت!

نطق بها حسن في وجه طاهر الذي ظلَّ مُتصلبًا مثل تمثالٍ حجري.. لم يبدو أنه سمعه.. نظرتُ في عينيْه فرأيتُ فراغًا وغيابًا.. مددتُ يدي وحاولتُ أن أحركه من مكانهِ.. كان راسخًا حتى أنني عجزتُ عن تحريكهِ قيد أنملة، كأن هناك قوةً جبارةً تُثبته في موضعهِ.

فجأةً التفت نحوي.. ضاعت نظرةُ الفراغ وحلت محلها نظرةٌ أخرى مُخيفة.. خرجت منه حشرجةٌ طويلةٌ ميَّزت منها بضعَ كلماتٍ بلا معنى.. للحظةٍ ذهب بي الظن أنه يُحدِّث شخصًا ما يقفُ خلفي مباشرةً.. رأيتُ

الذعـر يجـري في ملامـح حسـن.. اهتـزَّت الجـدران وظننـتُ أن السـقف سـينطبقُ فوقنـا ثـم تهشَّـم كل زجـاج النوافـذ الموجـود في الغرفـة كأن يـدًا خفيَّـةً حطَّمتـه في آنٍ واحـدٍ، ودخلـت ريـحٌ قويـةٌ أطـارت كل مـا فـوق الأرض..

حاولـتُ أن أحمـي وجهـي بيـدي مـن الزجـاج المتطايـر.. شـعرتُ بعـشراتِ الوخـزات في يـدي والزجـاج ينغمـسُ بهـا..

حـين سـكن الأمـر رفعـتُ وجهـي أرى النتيجـة.. كان المشـهدُ مُرعبًـا.. مـا زال طاهـر في منتصـف الغرفـة دون أن يتسـنَّه شيء، عـدا ذلـك كل شيء كان مُدمـرًا.

أخـبرني حسـن أنـه لم يـر مثـل ذلـك مـن قبـل.. صحيـح أنـه أشرف مـع والـده مـن قبـل عـلى عـلاج عـشراتٍ مـن حـالات لبـس الجـن إلا أن مـا شـاهده يفـوق قـدرات الجـن أو القريـن.

- اللي حضَّر العفريت يصرفه!

هكـذا قـال حسـن.. كان لا بـد مـن زيـارةٍ للسـيناوي حتـى نعـرفَ الـشيء الـذي يُسـيطر عـلى طاهـر.. لـذا وحـين كان نـورُ النهـار عـلى وشـك الانطفـاء انطلقـتُ بالسـيارة إلى

منـزل السـيناوي بينـما ظـل حسـن مـع طاهـر في محاولـةٍ منـه لتحصـين المنـزل وغسـله بالمـاء والملـح..

عندمـا وصلـتُ للسـيناوي أوقفـتُ السـيارة عـلى مسـافةٍ غـير بعيـدةٍ مـن المنـزل ثـم ترجَّلـت منهـا غـير عابـئ بنبـاحِ الـكلاب الضَّالـة..

ضممـتُ معطفـي درءًا لموجـة الـبرد القارصـة، ثـم رفعـتُ الياقـة وأحنيـتُ رأسي بينهـا متلمسًـا بعـض الـدفء..

طرقـتُ البـاب ودون أن أنتظـر ردًّا دفعتـه بقدمـي فاسـتجاب لي ثـم دخلـتُ.. وجـدتُ السـيناوي يجلـسُ عـلى الأرض وأمامـه كومـة حطـب مُشـتعلة..

ـ تعال اتدفا!

قالهـا لي وهـو يُلقـي كومـةً جديـدةً مـن الحطـب فـوق النـار فتتوهـجُ وتُلقـى ظلالهـا عـلى وجهـهِ مثـل شـياطين تتراقـص..

ـ (برهوت)..

نطقـتُ بهـا في وجـه السـيناوي.. أو بالأحـرى قذفتُـه بهـا.. سـعل لحظـةً، ثـم قـال:

ـ مش فاهم!

وأشاح بوجهه عني.. وضعتُ يدي على كتفه:

- لا إنت عارف وإلا مكنتش حاولت تخبي وشك اللي اصفرّ دلوقتي،

ثم أدرتُ وجهَه نحوي.. كان بالفعل أصفر شاحبًا.. أردفتُ:

- أتكلم!

صمت طويلًا.. أخرجتُ سكينًا يبلغ طولها نصف الذراع، حركتها أمامه فانحلَّت عقدة لسانِه..

أخبرني وهو ينفخُ في النار حتى تتأجج، أن برهوت هي مكانٌ لمقبرةٍ في التل الأحمر كانت ملكًا لأحد كهنة الفرعون في دولة مصر القديمة، وأن الكاهن استعان بالجن لبنائها من أجل إخفاء كنوزهِ، وعندما مات الكاهن استوطن أتباعُه من الجن البئر؛ ولهذا السبب أطلق عليها "برهوت" ومعناها (مملكة الجن)..

- عملت إيه بالضبط في طاهر؟

أخبرني بأنه عقد عليه عقدة سحرٍ أسود لتحضير أحد ملوك الجن ويُدعى (سوميا)، ولأن الأمر لا يخلو من تمرد سوميا، فإن السيطرة عليه لا بد أن تكون بيد أحد بني الإنس، وفي حالة طاهر كانت الوحيدة القادرة

عـلى السـيطرة عليـه وإخراجـه هـي دلال.. نعـم دلال.. طاهـر أحـضر خصلـةً مـن شـعرِها وجعلها العُنـصر المُسـيطر دون أن تعلـم.. وحـين ماتـت تحـرَّر سـوميا واسـتحوذ عـلى طاهـر، ثـم ختـم السـيناوي كلامـه:

- (سوميا) مكانه هناك.. في برهوت..
- عاوزك تيجي تصرفه!
- محدِّش يقدر يصرف سوميا.. وطاهر لازم يموت..

ثم أطلق ضحكةً عاليةً..

- بتخاف من الموت؟

قالها السـيناوي وهـو يسـكبُ قليـلًا مـن الجـاز عـلى النـار فيـزداد حجمُهـا ولهيبُها..

- آخر حاجة أخاف منها..
- طيب بتخاف من إيه؟
- أنا عايش من غير خوف..
- لكـن مفيـش إنسـان يقـدر يعيـش مـن غـير خـوف.. الخـوف والطمـع هـما الـلي اتبنـت عليـه الدنيـا..

- الدنيا اتبنت على الحب..

ضحك:

- الحب.. الحب ده المعنى المهذب للجنس..

هممتُ بالنهوض لأنهي هذا الجدال السخيف.. استدرك قائلًا:

- لو حاولت تنقذ طاهر هيلبسك مكانه..

- وعد ولازم أوفي به..

تشوَّهت قسماته فجأةً وصرخ:

- اللي بتفكر فيه هيكون معاه نهايتي قبل نهايتك..

لم أعبأ بكلامه.. هممتُ بالخروج.. قبضتان من حديدٍ أحاطتا بعنقي.. جحظت عيناي بينما هو يعتصرُ عنقي الذي راح يتداعى بسرعةٍ.. الموتُ يقتربُ مني سريعًا.. مددتُ يدي بصعوبةٍ مُحاولًا إزاحة اليد.. كان أمرًا مُستحيلًا.. بقايا ذرات الأكسجين في رئتي أوشكت على النفاد.. صراخ السيناوي المسعور يتردد:

- هقتلك وأدفنك هنا!

بآخر طاقتي عضضتُ ذراعه وجذبتُ أذنه بقوةٍ فأرغمته على إفلاتي، وقبل أن يتمالك نفسَه طوَّحتُ

قدمي بين ساقيْه فصرخ ثم سقط على الأرض، لكنه نهض سريعًا وعاد ينقضُّ عليَّ.. ألقيتُ نفسي بعيدًا عنه ثم دفعتُ الحطب المشتعلَ في اتجاهه.. حاول أن يتفاداه لكنه اصطدم في وجههِ وأعمى عينه.. انزويتُ في أحد الأركان بينما راح يصرخُ وهو يضربُ بيده في كل اتجاه:

- اااااااااااه..

كان مثل ثورٍ هائجٍ فقد قائدَه فطاح يُدمر كلَّ ما حوله.. جاءت ضربتُه في إناء الجاز فأسقطه أرضًا وسرعان ما لامس النار التي هاجت بسرعةٍ وزحفت على الأرض والجدران مثل ثعبانٍ سامٍّ وأحاطت بالسيناوي..

فكَّرت أن أنقذه.. حقيقي فكرت.. لكن فجأةً انهار جزءٌ من السقف مُحدثًا ضجةً كبيرةً وظهرت فجوةٌ واسعةٌ مكانه بان من خلفها ظلامُ الليلة ونجومها المتناثرة.. حدث كل ذلك في لحظاتٍ قليلةٍ.. تلمَّستُ لنفسي موطئًا للهربِ ثم هرولتُ بلا لحظة تفكيرٍ أخرى يُتابعني صراخ السيناوي والنيران تأكله بلا رحمةٍ..

وقفتُ من بعيدٍ أتابعُ الحريقَ.. بقي المنزلُ مشتعلًا والنار تعوي فيه مثل ذئابٍ متوحشةٍ.. كان بإمكانِ الأهالي إطفاء الحريق لكنهم اكتفوا بالنظر والمتابعةِ.. حين انتهى كلُّ شيءٍ انصرف الجميعُ إلى منازلهم وكأنَّ شيئًا لم يكن..

عـدتُ للسـيارةِ وانطلقـتُ بهـا عائـدًا يُسـابقني قمـرُ الليـل الدمـوي، بينـما تُطـاردني تـلالٌ مـن الرمـل الأحمـر والأسـود.. وأيضًـا تـلالٌ مـن الخـوف.

الفَصْلُ العَاشِرُ

- حسن!

ناديتُ على حسن حين دخلتُ المنزل الذي وجدته يغرقُ في ظلامٍ دامسٍ وسكونٍ عجيبٍ.. لكن فجأةً اخترق هذا السكونَ أنينٌ.. أنينٌ يتسرَّبُ من حجرةٍ طاهر.. أحسستُ برجفةٍ مبهمةٍ تستولي على روحي.. اقتربتُ من بابِ الحجرة.. كان القفلُ الموضوعُ فوقها مُلقى على الأرض وقد تم تحطيمُه.. فتحت البابَ برفقٍ.. في الداخل اصطدمتْ عيناي بحسن وهو مُقيد على الأرضِ وقد وضعت كمامة فوق فمه.. جحظتْ عيناه بمجرد أن رآني وتمتم بكلامٍ مسعورٍ من وراء الكمامة لم يُمكنني تمييزُه ولكن أمكنني فهمه.. فعلى امتداد بصري رأيتُ هتلر

يلـوي ذراع طاهـر ويقـودُه أمامـه شـاهرًا طبنجـة ضخمـةً في وجهـي.. بجـوار هتلـر كان يقـفُ رجـلٌ طويـلُ الذقـن مهلهـلُ الثيـاب ويضـع حـول عنقـه عـشرات السـبح والتعاويـذ.. قـال هتلـر وهـو يلهـثُ:

- أنـا مـش عـاوز أأذي حـدّ.. أنـا جبـت معايـا الشـيخ.. هناخـد طاهـر يسـحب لينـا المقـبرة.. آخـد نصيبـي ومـش هتشـوفوني تـاني..

تبادلـتُ النظـر بينـه وبـين حسـن وطاهـر الـذي كان مستسـلمًا ومُسـتكينًا تمامًـا.. رفعـت يـدي وقلـتُ:

- أنا مش هقاوم ولا حاجة.. إعمل اللي إنت عاوزه..

لوَّح لي هتلر بالطبنجة وهو يجذبُ طاهر:

- قدَّامي!

ثـم هبطنـا إلى النفـق.. أشـعل هتلـر مصباحًـا ضخـمًا وسرنـا حتـى وصلنـا إلى مـكان المقـبرة التـي اختفـتْ، ثـم أشـار إلى مكانِهـا مُخاطبًـا الشـيخ:

- كانت هنا..

أخـرج الشـيخُ مـن جيبـه حجابًـا ووضعـه حـول عنـق طاهـر.. ردَّد بعـض التعاويـذ مـن سـحر الجـان ثـم دقَّ وتـدًا في الأرض، وأشـار لي بـأن أحفـر.. وبالفعـلِ بـاشرتُ العمـل..

وبعـد سـاعتيْن وبعـد أن أوشـكتُ عـلى السـقوط تعبًـا.. صرخ طاهـر وقـد انقلبـت ملامحُـه:

- أنا ملك الملوك!

تلوَّن وجهُ الشيخ:

- الزم مكانك يا ملعون!

قالهـا بصـوتٍ جَهْـوَرِيٍّ وهـو ينـثرُ مـادةً أشـبه بالحنَّـاء في وجـه طاهـر.. قـال هتلـر وهـو يضـعُ يـدَه عـلى كتـف طاهـر:

- إهدى يا طاهر.. أنا..

وقبـل أن يكمـل جملتَـه قبـض طاهـر عـلى عنقـهِ ثـم رفعَـه عاليًـا بيـدٍ واحـدةٍ.. تراجـع الشـيخُ للـوراء وهـو يُـردد:

- يا حفيظ!

ثـم طـوَّح طاهـر بهتلـر في الهـواء مثـل دميـةٍ صغـيرةٍ فارتطـم بالجـدارِ وهـوى فاقـد الوعـي بعدمـا تهشَّـم المصبـاحُ بجـواره وابتلعنـا الظـلام..

رحـتُ أبحـثُ في الظلمـة الحالكـةِ بدافـعٍ غريـزي وأرهـفُ سـمعي إلى صـوت الخطـوات التـي تتحـرَّك ثقيلـةً وبطيئـةً، ومـا هـي إلا لحظـاتٌ حتـى سـمعتُ حشرجـةً مـن الشـيخ،

ثـم صـوت كـسر عنـقٍ أعقبتـه آهـةٌ مكتومـةٌ وسـقوط جسـدٍ عـلى الأرض..

سمعتُ صوتًا خافتًا غليظًا:

- مجدي!

حاولـتُ الاسـتعانة بذاكـرتي وبـدأتُ أسـيرُ في النفـق باتجـاه الخـروج.. ومـا أن شرعـتُ في اعتـلاء الـدرج حتـى اهتـزَّت الأرضُ مـن تحتـي وكـدت أسـقط.. تهـاوت الأعمـدة الخشـبية التـي تحفـظ النفـق مـن الانهيـار واختلـط الغبـارُ بالصخـور التـي راحـت تسـقطُ.. بصعوبـةٍ شـديدةٍ أكملـتُ الصعـود قبـل أن يحـدثَ الانهيـارُ التـام..

لم أكـد أصبـح في الخـارج حتـى انفجـرت كومـةُ غبـار مـن تحـت الأرض وتهـاوى النفـقُ.. وكل مَـن داخلـه قـد مـات.. حتـى طاهـر.. الآن انتهـى الأمـرُ.. عُـدت إلى حسـن ثـم فككـتُ وثاقـه..

لحظـةً وسـمعتُ حركـةً مـن خلفـي.. التفـتُّ نحوهـا فرأيـتُ عينـيْن تنظـران لي مـع ابتسـامةٍ ميتـةٍ.. عينـان لشـخصٍ يُدعـى طاهـر!

لم يكن هناك تفسيرٌ لنجاة طاهر من الانهيار سوى أن الجن هو مَن أخرجه.. ابتعدتُ عنه أنا وحسن، ثم أخبرتُ هذا الأخير بكلِّ ما جرى بيني وبين السيناوي وما دار بخصوص برهوت وملك الجن سوميا.. قال إنه كان يتوقع شيئًا من هذا القبيل، ثم أخبرني أنه يحتاجُ أن يعودَ إلى مكتبة والده للحصولِ على الأدوات والكتب اللازمة لمواجهة مخلوقٍ بمثل تلك القوة..

أعرته سيارتي فانطلق بها دون تأخير.. تأكدتُ من إحكام القفلِ على بابِ طاهر، ثم قضيتُ بقية الوقت أتحاورُ مع نفسي..

بعد مرور بضع ساعاتٍ مرَّت كالدهر، جاء حسن وهو يحملُ جوالًا كبيرًا مليئًا بكتب والده الخاصة بالسحر وتحضير الجن..

أفرغ محتويات الجوال على الأرض، ثم انتقى منها كتابًا ضخمًا مصنوعًا من الجلد ومكتوبًا بحروفٍ من الدم.. قرأتُ اسم الكتاب: "شمس المعارف ولطائف العوارف"..

بحثنا عن أي معلومةٍ حول سوميا.. وبالفعلِ وجدنا له صورةً تخيليةً مُرعبةً مع كلامٍ أكثر رعبًا..

بعـد بحـثٍ وتمحيـصٍ اكتشـفنا طريقـةً وحيـدةً لتحريـر طاهـر.. تلـك الطريقـةُ هـي أن نقتـلَ ملـك الجـن.. سـوميا.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

لقتلِ مخلوقٍ من الجن نحتاجُ إلى ثلاثة أشياء:

- قرن شيطان..
- دماء بشرية..
- عين ميت..

كان حسن يمتلك قرنَ شيطانٍ، وهو يُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ قَرن جَدْي عجوزٍ، وإن كان ذا حجمٍ أصغر وأطول، وله رهبةٌ عجيبةٌ في النفس بمجرد أن تراه.. تبقَّى لدينا غَرَضَان لنحصلَ عليهما.. الدماء، والعين.. وللحصولِ عليهما كان لا بد من الذهابِ إلى مكانٍ واحدٍ ومصدرٍ واحدٍ.. إلى عبَّاس.

وهكذا قفزتُ على عجلة قيادة السيارة وانطلقتُ بها برفقةِ حسن نطوي الطريقَ..

تركتُ حسن في السيارةِ ودخلتُ المستشفى.. شعرتُ بانقباضةٍ في صدري وبيدٍ باردةٍ تعتصرُ قلبي حينما خطوتُ داخلها من جديدٍ..

في الاستقبالِ لمحتُ مُمرضةً منتفخةَ الجفنيْن، تُمسك كوب قهوةٍ وتُشاهد برنامج مسابقاتٍ غنائيةً بكلِّ اهتمامٍ وتركيزٍ.. لم تشعر بي حين اقتربتُ منها.. لم يبدو أنها سمعتني حين ألقيتُ عليها السلام.. رغبتُ في أن أهشِّم التلفازَ فوق رأسِها لولا أن قالت دون أن تنظرَ نحوي:

- أي خدمة يا أستاذ؟

سألتها عن عباس.. أخبرتني بأنه في عنبر العِظام، ثم أشارت للمصعد:

- خد الأسانسير عشان السلالم كثيرة!

- ألف شكر..

رشفتْ من كوبِ القهوة ونظرتْ نحوي أخيرًا:

- فائز إن شاء الله..

قالتها فلم أفهم معناها.. قلتُ مستفسرًا:

- أفندم!

أشارت لشاشة التلفاز حيث شاب يبدو خليجيًّا يتغنَّى بواحدةٍ من روائع أم كلثوم، وقالت:

- صوته حلو قوي..

- آه.. تمام.. تمام.

وتركتها قبل أن تتلقفني في حوارٍ أو ثرثرةٍ لا طائل منها.. ركبتُ المصعدَ متمنيًا أن أجدَ عباس.. كان المصعدُ يُحدث صريرًا حادًّا وهو يصعدُ بي.. لو تعطَّل الآن أو سقط بي فلن أتعجب..

صفارةٌ قصيرةٌ بعدها فُتح باب المصعد وشاهدتُ لافتةً من النيون كُتب عليها باللون الأسود: (عنبر العظام)..

خرجتُ من المصعد وسرتُ في ردهةِ العنبر التي تناثرتْ فيها قطعٌ من مُعدَّاتِ المستشفى..

دخلتُ العنبرَ متخطيًا بابًا كبيرًا من الزجاج الأزرق.. في الداخل كانت الرائحةُ خليطًا من أدويةِ التعقيم والكحول، كذلك تراصَّت سرائرُ المرضى تتخللها أجهزةُ تنفُّس ومساندُ معدنيةٌ، بالإضافة إلى أعمدة جلوكوز طويلةٍ..

لمحتُ شابًّا متوسط العمر، تُحيط الضماداتُ برأسهِ والجبسُ الأبيضُ بساقيْهِ ويديْهِ.. شعرتُ نحوه بالشفقةِ

حـين رأيـتُ الدمـوع في عينيْـه تسـيلُ بصمـتٍ، ثـم رأيـت عبـاس.

- مجدي باشا!

- عاوزك في موضوع مهم..

كان هـذا هـو كل الحـوار الـذي دار بينـي وبـين عبـاس في العنـبر قبـل أن أذهـب معـه لمـكانٍ نسـتطيع أن نتحـدثَ فيـه بحريـةٍ كـما طلبـتُ منـه في نهايـة كلامـي.

أخبرتـه بمـا أريـد.. قـال وهـو يُحـاول تقييمـي بنظـرةٍ فاحصـةٍ:

- طلبك مش عندي!

كنـتُ أتوقـع ذلـك.. لكـن عينيْـه تفضحـان فسـادَه.. قلـتُ وأنـا أبـرز لـه رزمـة نقـودٍ مـن فئـة الخمسـين:

- حتى ولو عشان دول..؟

راح يُحدِّق في المبلغ:

- دول كام؟

- ألفين..

- خليهم ٥!

- ٢ ونص..

- أربعة..

- تلاته..

أرجح رأسَه ببطءٍ، ثم قال:

- اتفقنا يا قائد..

ثم توجَّهنا إلى المشرحة..

أمام بابِها المعدني والذي يشعُّ برودةً توقَّفنا..

ابتسم عباس، ثم أخرج مفتاحًا نحاسيًّا أداره في القفل:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

وهكذا صرنا في الداخل..

وفي الداخل تراصت مناضد معدنية تعلوها جثثُ الأموات..

خلف المناضد كانت تُوجد ثلاجة حفظ الموتى.. عرفتها بسبب رؤيتها في أكثر من فيلمٍ.. في الواقع كانت أضخم وأكثر رهبةً مما كنتُ أتخيل..

أشعلتُ سيجارةً وأخذتُ منها نفسًا عميقًا، فالتفت نحوي عباس بغضبٍ:

- مش تقول إن معاك سجاير!

ثم ضحك وسحب من علبتي سيجارة لنفسهِ وأشعلها:

- تفتكر الأموات بيتأذوا من ريحة السجاير؟

قالها بسخريةٍ.. تذكرت فيديو تم تداوله على مواقع التواصل الاجتماعي يُظهر أمناء شرطة يعبثون بإحدى الجثث ويضع أحدهم السيجارة في فمها.. أثار هذا الفيديو موجة غضبٍ في نفوسِ المصريين.. فقدسيةُ الموت عندنا ورثناها من أجدادِنا الفراعنة.. قلتُ:

- العلم عند الله..

قلتها فابتسم، ثم فتح الثلاجة وأخرج من داخلها جثةً لامرأةٍ تبدو حديثة الوفاة..

كانت تبدو رقيقةً وملامحُها تحمل كل سلام الدنيا.. قلتُ وأنا أتأمل في الوجه الميت:

- مبلاش دي.. شوف جثة تانية!

- دي جاية في حادثة وأي شيء مفقود منها محدِّش هيدقق فيه، غير كدا لغاية دلوقتي ملقناش ليها

أهـل.. يعنـي دي تاخـد منهـا الـلى إنـت عـاوزه وإنـت مطمــن.

ثم أخرج مبضعًا من جيبِ معطفهِ، وأكمل:

- طيـب وحيـاة ولادي، الجثـة دي لـو تقـدر تتكلـم كانـت شـكرتني عـلى الـلي هعملـه دلوقتـي..

ثـم غـرز مبضعـه في العـين اليمنـى فانتزعهـا تـاركًا خلفهَـا فجــوةً واســعةً مُخيفــةً أحالــت الوجــه الملائــكي إلى وجــهِ شــيطان.. اســتطرد:

- شـايف بقـت وحشـه إزاي.. كـدا تضمـن إن مفيـش ابـن حـرام ييجـي ينـطّ فوقهـا..

كان معنى كلامه واضحًا جدًّا، لكني قلتُ:

- مش فاهم!

- يغتصبها يعني..

ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ:

- إنت بتتكلم جد؟

تحسَّس صدر الجثة بتلذذٍ، ثم ضحك بسخافةٍ:

- وجـد الجـد كـمان، وحيـاة أمـي في تُربتهـا.. طيـب تحـب أحـكى ليـك عـن الـلي أفظـع مـن كـدا!

أشرت لـه بـأن يصمـت وأن يُكمـل مـا يفعلـه.. لم أعـد أرغـب في سـماع أو معرفـة المزيـد..

استجاب لإشارتي ووضع العين داخل كيسٍ شفافٍ، ثم عاد وأخرج العين الثانية ووضعها مثل الأولى، ثم ناولهما لي:

- اتفضل يا سيدي!

تناولتهما منه مرتعشًا.. أخرجتُ حافظتي وأعطيته ما اتفقنا عليه من نقودٍ.. أحصاها في البداية بشكٍّ وحين تأكد من كون المبلغ صحيحًا، مال على الجثة وقبَّلها من فمها:

- ألف شكر يا هانم!

ثم أنهى جملته بضحكةٍ عاليةٍ تلقفتها في أذني فهرولتُ مسرعًا مثل المجنون.

٤.. ٣.. ٢..

رحتُ أراقبُ الأرقامَ المضيئة داخل الأسانسير وأعد معها الأدوار التي أهبطها.. ضرباتُ قلبي كانت أعلى من

صـوت صفـير فتـح بـاب الأسانسـير حـين خرجـت.. سرتُ في ردهـة الاسـتقبال وقـد وجـدت هـدوءًا عجيبًـا وغـير طبيعـي..

عـلى امتـداد بـصري شـاهدتُ مـكان موظفـة الاسـتقبال خاويًـا، بينـما التلفـاز مـا زال يعـرضُ برنامـج المسـابقات السـخيف..

ألقيـت ذلـك خلـف ظهـري وتوجهـت للخـروج.. فجـأة أوصـد البـاب أمامـي بعنـفٍ.. ارتعشـت الأضـواءُ للحظـاتٍ ثـم انطفـأت.. غرقـتُ في ظـلامٍ لا يُبـدده غـير ضـوءٍ شـاحبٍ تسـلل مـن تحـت عقـب البـاب.. مـن جديـدٍ سـمعتُ صـوتَ التلفـاز الـذي أضيئـت شاشـتُه وامتـلأ بخطـوطٍ بيضـاء غـير واضحـةٍ.. راحـت حركـةُ الخطـوط تنتظـمُ ثـم تظهـرُ صـورةً مشوشـةً.. اقتربـتُ مـن التلفـاز بحـذرٍ.. شـاهدتُ نفـسي عـلى شاشـته برفقـة عبـاس وأمامنـا جثـة الفتـاة.. عبـاس ينتـزع العينـيْن بينـما أنـا أقـفُ متوتـرًا.. كان الأمـر أشـبه بمثابـةِ تسـجيل كاميرا مراقبـة.. أي لعنـة أو أي سـحرٍ شـيطاني يجـري أمامـي.. ثـم حـدث مـا لم أتخيلـه أو مـا لم يحـدث في الحقيقـة.. شـاهدتُ نفـسي وأنـا أجثـمُ فـوق الجثـة ثـم أمـارسُ معهـا الجنـسَ القـاسي وسـط ضحـكاتِ عبـاس المجنونـة التـي راح صداهـا يـتردد بـلا انقطـاعٍ، ثـم اتسـعت مـن حـولي وابتلعتنـي داخلهـا..

التفتُّ خلفي لأجدَ ظل موظفة الاستقبال يدنو مني ببطءٍ.. حركتها كانت آليةً ومرعبةً.. أضأتُ نور كشَّاف هاتفي في وجهِها.. عينان من الجحيم هما ما ظهرا.. قبل أن تُدركني هرولتُ باتجاه باب الخروج.. لا أعرفُ كيف صرتُ بالخارج.. فقط ألقيتُ نفسي بجوار حسن وأنا ألهثُ.. كان الرعبُ يغمرني وكنتُ غير قادرٍ على الحديث.. سألني عن سبب تأخيري وعما حدث حين أدرتُ مُحرك السيارة وانطلقتُ بها وسط الشوارع في الليل المظلم.. لم أجبْه واكتفيتُ بمحاولةِ التقاط أنفاسي ثم رفعتُ الكيسَ الشفافَ وما يحويه من عينيْن تسبحان في الدماء.. الغريبُ أنه ولأول مرةٍ ألاحظ أن العينيْن كانتا.. (زرقاويْن).

زرقاء..

زرقاء هي السماء وأمواجُ البحر التي تتكسَّر على صخور شاطئ إسكندرية حين سرتُ بجوار ولاء وأنا أحيطُ خصْرَها بذراعي، بينما هي ترنو برأسِها على كتفي..

إنها ليلةُ عيد الربيع منذ عامٍ مضى، وصوتُ سعاد حسني والدنيا ربيع والجو بديع يُعطر الحياة مثلما تُعطرها الأزهارُ والوردُ الموسمية..

أطلقت ولاء ضحكةً ماجنةً أسكرتها زجاجةُ خمرٍ ثم قبَّلتني على خدِّي دون أن تهتم بنظراتِ البشر الذين يجلسون على كراسي ممشى البحر.

- عليًّا النعمة إنتي مجنونة..

- دلعني!

قالتها وهي تحتضنني وتُحاول أن تُقبلني من جديدٍ.. أبعدتُ وجهي عنها.. زوتْ ما بين حاجبيْها بغضبٍ مصطنعٍ:

- في البيت يا حبي..

أدارت رأسَها:

- أنا عطشانة..

ثم ناولتني زجاجة البيرة الخضراء.. كانت فارغةً.. لم تترك فيها قطرةً واحدةً.. لهذا فعلت الشيء الطبيعي وألقيتها بعيدًا على قارعة الطريق فتهشمت إلى شظايا دهسَتها السياراتُ التي تأتي من خلفي مُسرعةً مع سبابٍ من بعض السائقين.. ضحكنا حتى كِدنا نسقطُ على وجهيْنا:

- لسه عطشانة..

أشرت إلى الناحيـة الأخـرى مـن حيـث نقـفُ.. إلى ملهـى ليـلي زُيِّنـت واجهتُـه بالأشـجار والأنـوار المضيئـةِ مـع لافتـةٍ عملاقـةٍ لراقصـةٍ بيضـاء مثـل المهلبيـة وخلفهـا مطـربٌ شـعبي يُشـبه جعرانًـا فرعونيًّـا تـم تحنيطُـه..

أمسـكتُ يدَهـا وعبَرنـا إليـه.. أشرتُ بالتحيـة إلى البـودي جـارد الـذي يقـفُ عـلى المدخـلِ ويـشربُ مـن علبـة بـيرة.. فتـح لنـا البـابَ بصمـتٍ وفي أدبٍ جـمٍّ.

في الداخـلِ شـعرتُ بالرضـا عـلى حُسـن اختيـاري لهـذا المـكان.. كان ملهـى ليليًّـا داعـرًا كـما يجـب أن يكـون.. يُمكننـي أن أضاجـعَ ولاء فـوق المائـدة التـي نجلـسُ عليهـا دون أن ينظـرَ إلينـا أحـدٌ بوقاحـةٍ أو يسـألنا عـما نفعـل.

أتـت إلينـا نادلـةٌ نصـف عاريـةٍ في العشرينيات مـن عمرِها ووضعـت قائمـة الطعام مـع ابتسـامةٍ سـاحرةٍ مُصطنعةٍ:

- نوَّرتي يا هانم.. نوَّرت يا باشا!

ثـم أخرجـت ورقـةً لتُـدون فيهـا طلباتنـا.. وأيضًـا طلبـتْ زجاجتـيْ بـيرة كفاتـح شـهيةٍ قبـل الطعـام..

لكزتنـي ولاء في قدمـي حـين لمحتنـي أتفحَّـصُ مؤخـرةَ النادلـة ذات الحجـم العائـلي..

بعـد أن انتهينـا مـن قضـاء السـهرة وكنَّـا عـلى وشـك المغـادرةِ قالـت النادلـةُ حـين لمحـتْ رزمـة النقـود التـي أخرجتهـا:

- ليك في اللعب يا باشا؟

وقبـل أن يذهـب تفكـيري إلى اللعـب في المناطـق القـذرة اسـتدركتْ بسرعـةٍ:

- فيه لعبة بوكر شغالة..

وأشـارت إلى ممـرٍّ يقـفُ عليـه بـودي جـارد قصـيرُ القامـة قبيـح الملامـح:

- هناك..

ملتُ على ولاء:

- إيه رأيك؟

لثانية أو ثانيتين ترددت:

- وما له.. خلينا ننبسط!

- معاكي فلوس؟

- حاجة بسيطة..

- حلو قوي..

نهضتُ بصعوبةٍ من على المقعد بفعلِ كثرة ما أكلته وشربته.. عبرت من أمام الحارس.. قلتُ مازحًا:

- هناك..

أومأ برأسهِ وهو يُشير نحو بابٍ سميكٍ:

- هناك..

ثم طرق البابَ ثلاث طرقات سريعةٍ.. فتحت الباب الراقصةُ المهلبيةُ الموضوعةُ صورتها في الخارج:

- قشدة..

قلتها داخل نفسي.. لو سمعتني ولاء لذبحتني.. حيَّتنا الراقصةُ بابتسامةٍ واسعةٍ وأشارت إلينا بالدخول.. كانت الغرفةُ واسعةً، في آخرها يُوجد بارٌ صغيرٌ خلفه بارمان عجوز مُنشغل في صبِّ كأسيْ شمبانيا.. تتوسط الغرفة منضدة تناثرت فوقها أوراقُ اللعب، وقد التفَّ حولها ثلاثة رجال متجهمو الملامح..

اتخذتُ مكاني بعد أن حييت اللاعبين.. لم تفُتني نظرة رجلٍ ممصوص الجسد يُشبه الثعبان، ويرتدي عوينات عتيقةً لا تتناسبُ مع بدلته الحديثةِ باهظة الثمن.. خلط الأوراقَ بخبرةٍ.. ناولني ورقتيْن.. من خلفي تقفُ ولاء

وتتابعُ باهتمامٍ.. في مواجهتي تقفُ الراقصة خلف صاحب العوينات..

نظرتُ في الورقتين.. ولد مع آس.. ٢١..

غطيتهما ثم زدتُ الرهان.. دقيقة واحدة وكنتُ فائزًا بالدور الأول.. أعلم أنه من المُبكر الاحتفال بالمكسبِ، لكنني لم أستطع مقاومةَ ضحكةٍ خرجتْ مني ساخرةً..

ابتسم الثعبانُ في تحدٍّ مباشرٍ لي..

أكملنا اللعب..

بعد ساعةٍ كاملةٍ كنتُ قد خسرتُ كل أموالي..

مسحتُ العَرق من على جبيني، بينما نظر إليَّ الثعبانُ وقال ببرودٍ:

- هارد لك!

ثم أشعل سيجارةً، سحب منها نفسًا عميقًا..

- يلا بينا يا مجدي كفاية لعب!

قالتها ولاء وهي تجذبُني للخروج.. ابتسم الثعبانُ وهو يتفحَّصُ جسدَها في وقاحةٍ.

- لا..

قلتُها بتحدٍّ وأنا أسحبُ نفسي منها.. خلعتُ سترتي ورميتُها جانبًا.. فتحتُ حقيبة ولاء على الرغم من ممانعتِها الشديدة، وألقيتُ كلَّ ما وجدتُه في حقيبتها على المنضدة..

- العب!

رمي لي ورقتيْن.. تناولتهما بأصابع مرتعشةٍ.. ٧ و٩.. المجموع ١٦.. أقترب من الرقم الرابح ٢١..

كشف الثعبانُ إحدى ورقتيْه.. ١٠.. لو كان يُخفي ٧ فهو رابحٌ.. ابتسم ابتسامة ظفر وعاد للوراء بظهرِه..

- كارت..

قلتها بحدةٍ.. ناولني كارتًا ثم خلع عويناته ووضعها بجانبِ ورقه.. قال:

- البوكر مش بس لعب ورق..

كشفتُ طرفَ ورقتي الثالثة.. ٦.. المجموع ٢٢.. لقد خسرتَ..

أكمل:

- البوكر لعب بعقل اللي قدَّامك..

ثـم كشـف ورقتـه الثانيـة ولمعـت عينـاه.. ٣.. لقـد كنـتُ فائـزًا مـن البدايـة لكنـه خدعنـي.. ملـتُ بجسـدي ناحيتـه.. أوشـكت أن ألكمـه في وجهـهِ.. منعتنـي ولاء:

- كفاية بقى يا مجدي!

- اسمع كلام الهانم.. يا مجدي!

قالهـا بتهكـمٍ واضـحٍ.. كانـت هـذه هـي الكلمـة الأخـيرة التـي ينطقهـا قبـل أن أطـوح قبضتـي في وجهـهِ.. بعدهـا مـرَّت أمامـي المشـاهد متقطعـةً سريعـةً.. ولاء تـصرخُ.. تهشـم زجاجـة فـوق رأسي.. دمـاء دافئـة وقبضتـي تهشـمُ أنـف الثعبـان.. أذرع حديديـة تُحيـط بخـصري.. إلقـائي في الشـارع وقـد تمزَّقـت ملابـسي.. النهايـة كنـتُ أقـودُ سـيارتي برُفقـة ولاء والدمـاء تغـرقُ رأسي:

- سوق على مهلك!

لم أكـن أرى مـا أمامـي وأنـا أخـترقُ الطريـقَ بسرعـةٍ بالغـةٍ وقـد أعـماني الغضـبُ وظـلامُ الليـل.

- متخافيش..

قلتُهـا دون أن أنظـرَ إليهـا.. فقـط أنـا أرى الطريـقَ يتمـوَّج مثـل البحـر، بينـما رأسي يطفـو فـوق وسـادةٍ مُريحـةٍ..

ألمحُ لافتةً مُضيئةً لمجمعِ مواقف الإسكندرية..

فجأةً.. ولاء تصرخُ. فجأة.. طفلة صغيرة تعبرُ الطريق..

حاولتُ أن أتجنبها لكن عقلي وحواسي كانا أبطأ وأكسل مما يُفترض.. أرى الطفلة ترفع يدَها أمام وجهها ذعرًا وخوفًا.. لم أسمع لها صراخًا.. كل شيء صار مُعتمًا لوهلةٍ.. ربما توقَّف الزمنُ أو توقَّفت كلُّ حواسي.. عادت الأحداثُ تتحرك بسرعة الصاروخ مع صرخةٍ أخرى من ولاء.. الزجاج ينفجرُ في وجهي مثل قنبلةٍ مدويةٍ وجسد الطفلة يستقر فوق مقدمة السيارة.. دهستُ على الفرامل حتى كادت قدمي تخترقُ الدَّواسة.. توقفت السيارة بغتةً.. كنتيجةٍ لرد الفعل، جسد الطفلة ينزلقُ ثم يطيرُ في الهواء قبل أن يستقرَّ بجوار حافَّة الترعة..

أطفأتُ مُحرِّك السيارة وأنا ألهثُ.. هبَّت الرياحُ بقسوةٍ وعربدت بين شظايا الزجاج المكسور فأصدرت صفيرًا غريبًا.. هرعت مهشم الأعصاب ناحية الفتاة.. كانت تئنُّ من الألم.. قبل أن أقتربَ منها تحركت فانزلقت في الترعة وهوت كجلمودٍ حجري.. ألقيتُ نفسي خلفها بلا تفكيرٍ وغصتُ مثل المجنون.. كانت المياه قد ابتلعت الفتاة وطوتها سريعًا داخل أمواجها.. في الأسفل، كدت أن أختنقَ وضاعت أنفاسي حتى ظننت أنني سأموت.. لكني عثرتُ على الفتاة وهي ترتكزُ في القاع.. حملتها إلى السطح.. بين

يـديَّ وخلـف القمـر الدمـوي كانـت قـد فارقـت الحيـاة وعـلى وجههـا الـبريء حـسرةُ المـوت.. أغمضـتُ عينيْهـا الزرقاويْـن بيـدي محـاولًا أن أخفـي نفـسي منهـا.. رأيـتُ حـول عنقهـا سلسـلةً تعليقتهـا عـلى هيئـة ميـزان.. ربمـا كان هـذا هـو ميـزان العدالـة.. لكـن العدالـة كانـت قـد غابـت عـن الأرض في تلـك السـاعة.. تركتهـا مـن يـدي فعامـت فـوق سـطح المـاء حتـى ظننـت أنهـا سـتطفو إلى الأبـد.. لحظـاتٌ وكانـت تغـوصُ بسلاسـةٍ وراء انعـكاس.. (ضـوء القمـر).

ضوءُ القمرِ..

كان حـاضرًا حـين وصلـتُ أنـا وحسـن إلى الممـرِّ الـذي يقـودُ إلى التـل الأحمـر.. أخفيـتُ السـيارة وراء تبَّـةٍ عاليـةٍ فبـدت مثـل جثـة حيـوانٍ ميِّـتٍ.. شرعنـا في صعودِنـا دون أن نتلـكأ دقيقـةً واحـدةً.. حملـت أكيـاس الـدم والقَـرن والعينـيْن.. حسـن كان مُتجهـمًا طـوال الطريـق.. ربمـا لأنـه يعـرفُ تحديـدًا مـا ينتظرُنـا.. قلـتُ:

- أنا عاوز أشكرك قبل كل حاجة..
- ده جميلك وأنا بحاول أرده ليك.

دام صعودُنا للتل نصف ساعة حتى وصلنا برهوت.. كانت منطقة أشد وحشةً مما ظننتُ أو تخيَّلتُ.. عبارةً عن قبرٍ قديمٍ كادت تبتلعُه الرمالُ فلم يبقْ منه غير جزءٍ صغيرٍ.. بجواره أشجارُ صبَّار ترتفعُ مثل الأشباح وتُوحي بالموت..

تقدَّم حسن من المقبرة وصار يدورُ مِن حولها وهو يتفحَّصها باهتمامٍ.. لمَّا انتهى، تناول جاروفًا وناولني آخر ورُحنا نحفرُ حول المقبرة حتى ظهر بابُها المصنوعُ من الحجر الأسود المخلوط بالجبس، ثم شرعنا في تحطيمِهِ باستخدامِ المدقَّات.. بعد أن انتهينا سألتُه:

- هنزل دلوقتي؟

أجاب وهو يلهثُ:

- لسَّه.. فيه طقوس لازم نعملها الأول..

ثم تناول كتاب شمس المعارف وتخيَّر منه صفحةً معينةً وراح يقرأ منها بصوتٍ مرتفعٍ:

- يا مذهب بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا أبيض بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا أحمر بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا برقان بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا شمهروش بحق

الملـك الغالـب أمـره عليـك، وأنـت ميمـون بحـق اللـه عليـك الغالـب أمـره عليـك.. أجيبـوا.. أجيبـوا!

أجفلـتُ في مـكاني حـين سـمعتُ وقْـع حوافـر وصليـل سلاسـل حديديـة يـأتي مـن ورائي ويُمـزق صمـتَ الليـل المُوحـش.. التفـتُّ بسرعـةٍ فشـاهدتُ بغلـةً تبـدو مضيئـةً بفعـل الـشرر الـذي راح يتطايـرُ مـن عينيْهـا، وقـد حملـتْ سلاسـل حديديـةً حـول رقبتِهـا الطويلـة..

كانـت البغلـةُ تنظـرُ لي فيـما يُشـبه الفهـمَ لِـمَا نفعـل.. راحـت تـدورُ مـن حولنـا ببـطءٍ وتُصـدر أصواتًـا مُخيفـةً مـن حنجرتهـا.. مـدَّ حسـن يـدَه وأوقفنـي في مـكاني وهـو يقـول:

ـ متبصّـش ليهـا.. دي عروسـة القبـور.. لـو خدتـك هتطـير بيـك وتدفنـك وإنـت حـي..

ولأول مـرةٍ ألاحـظ أني كنـتُ أقـتربُ منهـا دون أن أشـعرَ.. عـدتُ للخلـفِ عـدة خطـواتٍ، وأشـحتُ وجهـي عنهـا محـاولًا أن أمحوهـا مـن عقـلي.. حـين التفـتُّ إليهـا مـرةً أخـرى كانـت قـد اختفـتْ تمامًـا دون حتـى أن تـترَكَ أثـرًا لحوافِرهـا عـلى الرمـال..

ألبسـني حسـن قميصًـا طويـلًا مصنوعًـا مـن الكِتَّـان وقـد كتـب فوقـه حروفًـا وأرقامًـا.. أخـبرني أن القميـص،

للحمايـة مـن أذى الجـن، غزلَتـه غجريـةٌ مـن بنـاتِ الريـح بيدِهـا اليُسرى وقـد دقَّـت فوقـه عزيمـةً بحـروفٍ ناريـةٍ.. في الحقيقـة لم أسـتوعب معظـم مـا قـال.. فقـط كل مـا يعنينـي أنـه سـيحميني مـن الجـن.. دقيقـة واحـدة.. لمـاذا تـم غـزلُ القميـص باليـد اليـسرى.. ابتسـم حسـن ولم يُجبنـي، ثـم أشـار لي بـأن أنـزل إلى المقـبرة.. لم أكـن أظـن يومًـا أني سـأنزلُ إلى مقـبرةٍ وأنـا عـلى قيـد الحيـاة.. المفـترضُ أن أنزلهـا وأنـا ميِّـت..

ناولنـي مصباحًـا صغـيرًا وطلـب منـي ألا ألتفـت إلى أي شيء يظهـرُ لي ثـم تمنـى لي التوفيـق.. تمنَّيـتُ أن يأكلـه شـيطان فابتسـم ابتسـامةً شـاحبةً.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

عبرتُ باب المقبرة ودخلتُ..

كان هنـاك صمـتٌ مُطبـقٌ ورهبـةٌ مُوحشـةٌ.. راح نـورُ الكشَّـافِ يرتعـشُ.. رأيـتُ ظـلالًا تتراقـصُ مِـن حـولي.. التفـتُّ للـوراء.. رأيـتُ القمـر يبتعـدُ ويغيـبُ.. بـدا لي أن هنـاك ظـلًّا ضخـمًا أغلـق البوابـة.. سـيطرت عـليَّ فكـرةٌ مزعجـةٌ أن حسـن أغلـق عـليَّ بـاب القـبر ورحـل.. ناديـتُ:

ـ حسن!

تـردَّد صـدى نـدائي عـشراتِ المـرَّات.. حاولـتُ أن أسـتبعدَ الخيـالاتِ والأوهـامَ مـن عقـلي.. حرَّكـتُ مصباحـي.. لمحـتُ صخـرةً صامـدةً في الركـن الأيـسر.. حـين اقتربـت منهـا انطفـأ المصبـاح.. انطبقـت عـليَّ الظلمـةُ وابتلعتنـي داخلهـا..

أحسستُ بصعوبةٍ في التنفس وكان الظلامُ يخنقني.. جاهدتُ هذا الإحساسَ.. سمعتُ ضحكةً خبيثةً.. شعرتُ بشيء يدفعُني إلى السقوط.. ثبَّت قدميَّ ثم ضربتُ بقبضتي المصباح عدة مراتٍ حتى كدت أهشُّمه لولا أن عاد للعمل من جديدٍ..

الصخرةُ أراها في الركن الأيمن.. هل قلتُ من قبل إنها في الأيسر.. لا أتذكر.. لا بد أنني أخطأت.. هل ذكرت أيضًا أن هناك امرأةً تجلسُ فوقها.. نعم هناك امرأةٌ وجهُها مقلوبٌ تجلسُ صامتةً صمت الموت وتنظرُ لي..

أغمضتُ عينيَّ وفتحتهما.. لم تعد المرأةُ موجودةً.. انطفأ المصباحُ من جديدٍ، وقبل أن أحاول إعادته للعمل سحبته قوةٌ خفيَّةٌ من يدي وطوَّحت به بعيدًا.. احتفظتُ بمكانه في ذاكرتي، ثم خطوتُ إلى الأمام بحذرٍ.. مددتُ يدي ورحتُ أحركهما في كلِّ اتجاهٍ.. عيناي جاحظتان أبحثُ عن لمحة ضوء..

سرتُ عدة خطواتٍ.. تعثرتُ.. سقطتُ.. نهضتُ.. وأخيرًا شعرتُ بالمصباحِ أسفل قدمي.. أشعلته من جديدٍ.. بسرعةٍ رسمتُ على الأرض دائرةً كبيرةً تتوسطها نجمةٌ خماسيةٌ ثم حددتها بالدماء التي شربتها الأرض في ظمأ حقيقي..

كتبتُ داخل زوايا النجمة أسماء ملوك الجان: (طيكل، دمليخ، ميمون، لياشلش، طهيوج)، ثم وقفتُ وسط الدائرة..

سكبتُ فوق وجهي ما تبقى من دماء، ثم وضعتُ عينيْ الميتة فوق عينيَّ.. للحظةٍ ومض بريقٌ داخل مقلتيَّ، ثم سرق بصري وعميتُ.. تلفَّت حول نفسي محسورًا وقد شج صدري بسيفٍ باردٍ من الذعر.. صرختُ وسط الظلام المُوحش المُحيط بي:

- حسن..!!

بعدها سمعتُ ضحكةً عاليةً، ثم انكشفت الرؤيةُ فجأةً أمامي فصرتُ مُبصرًا في مملكة الجن.

وجدتُ نفسي داخل ما يُشبه قاعة كهفٍ صخري تصطبغُ بنورٍ أحمر باهتٍ لا أعرفُ مِن أين يأتي مصدرُه.. على مقربةٍ مني شاهدتُ الجن يرتعُ في مجونٍ.. مخلوقاتٌ مُرعبةٌ تحملُ سمات عالم الأساطير واللا حقيقة.. لهم أرجلُ ماعز وأذرعٌ طويلةٌ كالعصيان تنتهي بثلاثة أصابع.. رأيتُ حفنةً منهم يحملون امرأةً عاريةً يُغطيها شعرٌ كالحرير وتحملُ صدرًا كبيرًا مثل حبتيْ أناناس.. كانت

المرأةُ تبدو كالمسحورةِ تستجيبُ لهم كالعجينِ في يد خبَّازٍ يُجيدُ الصَّنعة.. تتأوَّه بين الحين والآخر وتُخرج شهقاتٍ مكتومةً متلذذةً.. جسدُها الشهيُّ كاد يختفي تحت رماح أجسادهم حين راحوا جميعًا يُضاجعونها في كل فتحاتِ جسدها قبل أن يسحبوهَا معهم تحت الأرضِ وسط صياحٍ لا ينتهي.

رأيتُ حيةً عملاقةً تخرجُ من تحت الأرضِ.. تشكَّلت سريعًا واستحالت إلى كائنٍ آخر من الأبالسة، سرعان ما دخلتْ في شجارٍ مع جنٍّ يحملُ رأس كلبٍ.. كان السببُ تميمةً أخرجتها الحيةُ من فم ميتٍ سُلِخَ رأسُه وفُقئتْ عيناه.

لو كان هناك بديلٌ للجحيم لكان هو هذا المكان.. أمعنتُ النظرَ حولي في كلِّ ما حوالي فلم أجد غير قبحٍ وبشاعةٍ..

سرتُ مُتلمسًا النجاةَ والخروجَ.. سمعتُ صرخةً عاليةً فيها تعاسةٌ لا تنتهي وتأتي من ممرٍّ طويلٍ مُظلمٍ..

مشيتُ باتجاه الممرِّ.. على مدخل الممرِّ وُضعت بوابةٌ من حديدٍ نُقش فوقها رسمٌ مُفزعٌ لرجالٍ ونساء عراةٍ أجسادُهم ملتويةٌ يرفعون أيديهم لأعلى طلبًا للرحمةِ بينما يحترقون في أتون مُلتهبٍ.. كانت البوابةُ مُوصدةً..

مـددتُ يـدي محـاولًا فتحَهـا.. اشـتعلت فيهـا النـارُ فجـأةً فـكادت تلتهمنـي لـولا أن تراجعـتُ للـوراء سريعًـا..

سـمعتُ صرخـةً مُخيفـةً اهتـزَّت لهـا أرجـاء العـالم السـفلي وسـمعها كل الأمـوات.. ثـوانٍ.. ثـم فُتحـت البوابـةُ بفعـل قـوةٍ خفيَّـةٍ ورأيـتُ المخلـوقَ الأبشـع والأفظـع، وحـول عنقـه كان يلتـفُّ شـجاعٌ أقرع..(ثعبـان).

ثعبان..

اصطدمـتُ بـه أمـام الكاشـير في محـلٍّ للوجبـاتِ السريعـةِ بعدمـا كنـت انتهيـتُ مـن دفـن والـد حسـن.. كان قـد أطلـق لحيتـه وأطـال شَـعر رأسـهِ فبـدا مثـل أحـد كُفـار الجاهليـة كـما تُصورهـم الأفـلام.. ابتسـم في وجهـي وكأنـه عـثر عـلى فريسـةٍ:

- يا جمال الفرص السعيدة!

أجبتُـه باقتضـابٍ شـديدٍ مُحـاولًا إنهـاء هـذا الحديـث السَّـمج، لكنـه اسـتوقفني مـن جديـدٍ:

- مرجعتش تلعب تاني ليه!

قلتُ بهدوءٍ وأنا أتناول من الكاشير فاتورة الحساب:

- مفيش.. بطَّلت..

قال بلهجةٍ فظَّةٍ:

- ولَّا فلِّست؟

ثم سحب مني الفاتورةَ وألقى على محتواها نظرةً سريعةً، بعدها استطرد وهو يُخرج محفظته المُتخمة:

- اسمح لي أدفعلك!

احمرَّ وجهي حين ناول الكاشير النقودَ دون أن ينتظرَ ردِّي.. أوشكتُ أن أسبه وألعنه لكني أمسكتُ أعصابي عند الحدِّ الأخير ورسمتُ على وجهي قناع (أنْ لا بأس).. طلب مني بعد ذلك أن آتي معه للعب.. أخبرني أن اللعبة ستقتصرُ على كلينا.. لم أكن أرغب.. كنتُ قد عاهدتُ نفسي ألا أقربَ اللعب أو الشرب بعد الحادثة.. لكن رغبتي في الانتقام منه بسببِ إذلالي جعلتني أوافقُ على مضضٍ..

داخل منزلهِ جلسنا حول مائدةِ اللعب.. كان الثعبانُ قد أعدَّ غرفةً تُشبه الموجودة في كازينوهات القمار..

سألته وأنا أحصي أوراقي:

- إنت بتشتغل إيه؟

أجـاب إجابـةً مُبهمـةً مفادُهـا أنـه يعمـل كل وأي شيء..
سـألني:

- الهانم اللي كانت معاك، مراتك؟

قلتُ بتلقائيةٍ:

- لا.. دي صاحبتي.

أدركـتُ الآن زلـة لسـاني.. أدركـتُ كذلـك مـدى بشـاعة ابتسـامته الصفـراء التـي رسـمها الآن.. قـال:

- بتحبها؟

- مش عارف..

- علاقتك بيها قديمة..؟

قلتُ:

- خلينا في اللعب و..

قاطعني وهو يضحكُ ضحكةً ماكرةً:

- إيه رأيك نلعب عليها؟

لم أفهم لوهلةٍ ماذا يعني أو مَن يقصد:

- نلعب على مين؟

ابتسم وهو يعضُّ على شفتهِ السفلى:

- على الهانم اللي كانت معاك.. لو إنت كسبت حلال عليك الفلوس.. لو أنا كسبت تتصل عليها تيجي تنام معايا الليلة دي..

ثم توجَّه إلى بارٍ صغيرٍ أحضر زجاجة خمرٍ وكأسين.. صبَّ لي كأسًا ودفعها باتجاهي وهو يبتسمُ:

- اشرب!

تجاهلتُ الكأس، بينما صبَّ لنفسهِ كأسًا رفعها بامتداد ذراعه في وجهي وقال:

- في صحتك!

راقبته وهو يجترعُ الخمرَ على مهلٍ.. قلتُ:

- أوعدك لو فلوسي خلصت هنلعب عليها.. ردَّ وهو يُفند الورق بحماسةٍ:

- يبقى هتخلص!

ثم أكملنا اللعب.. بعد ساعةٍ كنتُ قد خسرت.. أقصدُ ربحت كل أمواله..

نظر نحوي وأنا أجمع النقود وأحشرها في جيوبي.. تجرَّع كأسًا جديدةً وقد احمرَّ وجهُه.. ابتسم نصف ابتسامةٍ، ثم قال:

- لعبتها صح المرة دي..

نهضتُ وأنا أرميه بنظرة استهزاء:

- تعيش وتاخد غيرها..

ثم استطردتُ قبل أن أنهض:

- تحبّ تكمّل!

أراح رأسَه للوراء ثم أغمض عينيْهِ وأشار لي بأن أغادر..

لم أكد أسيرُ بضع خطوات حتى سمعتُ صوتًا مسعورًا يدوي في عقلي: (انظر خلفك).. التفتُّ وإذا بالرجلِ الثعبان كان يتسللُ من ورائي وهو يحملُ سكينًا.. ودون أن يُعطيني فرصةً للحركةِ انقضَّ يطعنني في مكان القلب.. رفعتُ يدي بتلقائيةٍ.. السكين جرحت يدي وانحرفت.. صرخ مثل المجذوب، بينما أمسكتُ ذراعه الممسكة بالسكين.. تطوَّحنا معًا في قتال حياة أو موت.. اصطدمنا بمائدةِ اللعب فتهشمتْ بدويٍّ مزعجٍ وسقطنا على الأرض، ثم سكن كلُّ شيء بغتةً..

رأيتُ السكين داخل عنقه حتى مقبضها..

نظر لي محسورًا.. عيناه تتسعان.. فتح فمه.. حاول أن يصرخَ.. لم يخرج من حنجرته غير حشرجةٍ مكتومةٍ.. طوَّح بيده في الهواء باتجاهي.. تراجعتُ للوراء أتابعه في ذعرٍ..

نهض من على الأرض مترنحًا دون أن يُحاول انتزاع السكين من عنقه.. مدَّ يده وأمسك زجاجة خمر ثم سار باتجاه كنبة كبيرةٍ وارتمى فوقها.. رفع الزجاجة على فمه ثم نهل حتى أنهى ربعها.. نظر لي من جديدٍ.. رفع الزجاجة نحوي وكأنه يدعوني لمشاركته الشراب.. صدر منه خوارٌ مخيفٌ ثم سقطت الزجاجة من يده ومات.

اقتربتُ منه بعد قليلٍ.. كانت عيناه لا تزالان مفتوحتيْن.. فكُّه العُلوي ابتعد عن فكه السفلي فبدا مبتسمًا ابتسامته الكريهة.. انقضت بعد ذلك ساعةٌ كاملةٌ أنظر إلى جثته ولا أعرفُ كيف أتصرَّف.. لم أعتقد يومًا أنني قد أفعل شيئًا بمثلِ تلك القذارة ..

انتزعتُ السكين من عنقهِ.. اضطررتُ أن أستخدم كلتا يديَّ في ذلك.. لم أكن أعلمُ أن طعنتي كانت بمثل تلك القوة..

حملتُه وتوجهتُ إلى المطبخ.. فتحت الديب فريزر وأخرجتُ كل ما به من أطعمةٍ محفوظةٍ.. حاولتُ وضع الجثة في الداخل لكنها كانت قد تخشَّبت.. لم تعد لينةً بطريقةٍ تكفي لحشرها.. أحتاجُ إلى أن أقسمُها إلى نصفيْن.. مجرد التفكير في ذلك جعل معدتي تتحركُ.. جرَّبت أن أكسر ساقه.. ظهره.. اللعنة.. اللعنة.

بحثتُ عن ساطورٍ حتى وجدته.. فردتُ الجثة على الأرض.. بدأتُ بقطع اللحم ثم نشر العظام.. فاحت رائحةٌ كريهةٌ حين ثقبتُ الأمعاء الغليظة بالخطأ، حين انتهيت كنتُ أجلسُ بين شطريْ الجثة وحولي بركةٌ من الدماء الحمراء..

حاولتُ أن أنهض فشعرت بألمٍ في ذراعي.. تذكرتُ الآن أنني قد جُرحت.. دمائي تختلطُ بدماء الجثة التي لمحتُ فيها انعكاسًا مشوهًا لصورة وجهي الذي كاد يكون وجه.. (مسخ).

مسخ..

ذلك هو ما رأيته وراء بوابة الجن..

المخلوقُ المُخيفُ الذي خرج من غضبِ الرب ويُشبه التيس، وإن كان أكثر قبحًا وبشاعةً.. سوميا.. كان يجلسُ فوق عرشٍ عالٍ من الصخر الصُّلب الأحمر، وقد زيَّنته جماجم ورؤوس بشرية تصرخُ.. على جانبيْ عرشهِ اصطفَّت مجموعةٌ من البشر في أيديهم مباخر نحاسية يتصاعد منها دخانٌ كثيفٌ، ويرددون أدعيةً غريبةً.. كانوا جميعًا عرايا امتلأت أجسادُهم بوشومٍ شيطانيةٍ وبنديات صغيرة لا أعلم سببًا لها غير أنها قد تكون تقربًا لهذا البشع..

خرجتْ من وسط الصف، امرأةٌ فاحشة الجسد، تضع غطاء شفافًا على وجهها بينما شَعرُها ينسدلُ خلف ظهرها ويُلامس أطراف مؤخرتها التي اهتزَّت في ليونةٍ مطلقةٍ.. مشت نحو سوميا بكبرياء شيطاني حتى أصبحت بين ساقيْهِ.. أحنت رأسَها وقالت بخنوعٍ:

- سيدي.. إلهي المُبجل.. باركني!

ردَّد الجميعُ خلفها في آنٍ واحدٍ وبصوتٍ جَهْوَرِيٍّ:

- ليتبارك اسمك يا إلهنا!

ثم كشفتْ عن وجهها.. ضربني زلزلٌ وهوى قلبي من فوق سفح جبلٍ شاهقٍ.. كانت هويدا.. المرأة التي ضاجعتُها في غرفةِ مأمور السجن.. ثوانٍ ثم انحنت على ركبتيْها وقبَّلت قدم سوميا.

رغمًا عني وصلت الأبخرةُ إلى أنفي.. تسللتْ إلى عقلي ومنه تغلغلتْ داخل روحي.. مثل مسلوب الإرادة وجدتُ نفسي أنضم إلى صفِّ الواقفين في انتظار دوري من أجل تقبيل البشع..

لم أعد أذكر ما الذي أتى بي إلى هنا.. أو حتى كيف جئت.. أنا فقط شعرت بظمأ وبنارٍ في فمي لا أقدر

عـلى احتمالهـما.. تلـك اللحظـة التـي أعيشـها تلغـي كل مـا قبلهـا.. أي روعـة وأي جنـة صرتُ فيهـما.. توسَّـلت للشـاب الـذي يقـف أمامـي أن أسـبقه.. التفـت لي بعينـيْن خاليتـيْن مـن التعبـير.. التفَّـت مـن حـولي امرأتـان يسـيلُ العَـرق بـين فخذيْهـما وتطلبـان منـي أن أمتـزجَ بجسـديْهما.. أزحتهـما عنـي وتركتهـما مـع الشـاب يُمارسـون كل أنـواع الخطيئـة..

وصلتُ لسوميا..

نزلـتُ عـلى ركبتـيَّ ودنـوتُ مـما بـين سـاقيْهِ.. نكـزني قـرنُ الشـيطان الـذي أخفيـهِ في جانبـي.. اسـتفقتُ مـن غيبوبتـي فجـأةً وارتعـدتْ فرائـصي.. رفعـتُ وجهـي باتجـاه سـوميا الـذي نفـث سـمومَه ناحيتـي فأغـشى عينـيَّ للحظـةٍ، لكننـي ميَّـزت الآن أن لديـه قرنًـا وحيـدًا.. قرنًـا يُشـبه الـذي معـي.. أيُعقـلُ أننـي أحمـل قرنَـه الثـاني بـين يـديَّ.. رُبمـا.. رُبمـا لا.. ثـم وبـكلِّ قـوتي طعنتـه بالقـرنِ.

يتهاوى سوميا..

يهتزُّ لبرهةٍ.. يرتعشُ.. ثم يسقطُ فوق عرشهِ..

نظـرتُ إلى يـدي ورفعـتُ القـرن عاليًـا غـير مُصـدِّق أننـي نجحـتُ..

صرختُ..

صرخ الجميع..

انقلبوا إلى مساخيطَ بشعةٍ..

ومثـل هجـوم الزومبـي انقضُّـوا عـليَّ.. أغمـدت القـرنَ في أقربهـم لي.. تفاديـتُ انقضاضـة أحدهـم.. ركلـتُ ثالثًـا.. دفعـتُ رابعًـا.. اخترقـتُ الباقـين مثـل سـكينٍ في قطعـة لحـم.. المـكان يتهـاوى ويهتـزُّ كأنمـا ضربـه زلـزالٌ بقـوة عـشرة ريختر.. الأرضُ تتشـقق وتخـرجُ منهـا نـيرانٌ تطايـرت مثـل اليرقـات.. حممٌ مُلتهبـةٌ تزحـفُ كالثعابـين مـن بـين شـقوقِ الجـدران الواسـعة.. تجـاوزتُ كل ذلـك بكثـيرٍ مـن الحـظِّ والمجهـود في الركـض والمنـاورة..

خرجـتُ مـن القاعـة ووصلـت إلى بدايـة المدخـل.. لمحـتُ مـن بعيـدٍ نـور القمـر يتسـللُ مُرتعشًـا مـن خـلال فتحـةٍ تبـدو واسـعةً.. لـو اسـتطعتُ أن أصـلَ إليهـا فسـوف أنجـو..

اسـتجمعتُ أنفـاسي وجريـتُ مـن جديـدٍ.. لا تـزال أصـواتُ الراكضـين تُطـاردني.. شـعرتُ بأنيـابٍ حـادةٍ تقبـضُ عـلى كتفـي باسـتماتةٍ.. مخالـب تُمـزق جسـدي مـن الخلـف.. رفرفـة أجنحـة فـوق رأسي ولفحـة هـواء سـاخن في وجهـي.. ثـم سـقطتُ.

الفَصْلُ الأَخِيرُ

فتحتُ عينيَّ لأجد شمس الصباح حاضرةً في وجهي تزيل كل ما علق في جسدي وروحي من متاعب.. كان حسن يجلسُ بجواري بينما أنا مُستلقٍ داخل السيارة.. أحسستُ أن ملامحه تبدَّلت للحظةٍ.. حكي لي أنه هبط المقبرة حين سمع صراخي وهناك عثر عليَّ فاقدًا الوعي، ثم استطاع أن يُخرجني بعد أن قرأ بعض الطلاسم والعزائم.

- نجحت!

قالها بعد أن قصصتُ عليه كل ما حدث.. تبقَّى الآن أن نطمئنَ على طاهر.. لم ننتظر أكثر من ذلك وذهبنا له..

حين وصلنا وجدتُ طاهر وقد استعاد عافيته ويجلس على مصطبةٍ حجريةٍ أمام البيت.. لم أصدق ما رأيتُ حتى احتضنته وجاذبته الكثير والكثير من الحديث..

قضيتُ معه بقية اليوم ثم ودَّعته بعد أن أوصيته برعايةِ راجية التي بكت أثناء رحيلي.. في الحقيقةِ أحسستُ بتأثرٍ كبيرٍ حين تركتهما.

حسن انصرف إلى حال سبيله ولا أعلم هل سأراه بعد ذلك أم لا.

عدتُ إلى حياتي الطبيعية..

انشغلتُ قليلًا في عملي قبل أن أقرر أنني أحتاجُ إلى راحةٍ.. حجزتُ تذكرة سفر إلى اليونان..

عندما ركبتُ الطائرة تملَّكني إحساسٌ كبيرٌ براحة الضمير والأمان.. أغلقت نصف عيني تاركًا رأسي يسترخي فوق وسادة المقعد المخملي.. لم أعبأ كثيرًا بنظراتِ الفتاة الجالسة بحواري وهي تتفحصني من أعلى إلى أسفل، مرسلةً لي شفراتٍ ورسائلَ بأنها مُستعدةٌ لتجاذب أطراف الحديث.. تفحَّصتها بنظرةٍ خاطفةٍ بعد برهةٍ قليلةٍ.. صاروخ أرض جو من فئة عابرات القارات..

ساعة مرَّت منذ إقلاع الطائرة.. شعرتُ بالضجر وبالملل.. التفت نحو الفتاة.. كانت مندمجةً إلى حدٍّ ما في تصفُّح الفيسبوك.. سألتُها عن الساعة فابتسمتْ.. أعلم أنها طريقةٌ قديمةٌ لبدء محادثةٍ لكنها نجحت معها وانشغلنا قليلًا في التحدث عن آخر ألبومات الغناء، ثم انتقلنا بعد ذلك للحديث في السياسة وأخيرًا انتهينا إلى الحديث عن حرب فيتنام، قبل أن تنزع حزام الأمان وتستأذن في الذهاب إلى دورة المياه..

مشت الفتاة قليلًا في الممر المُمتد بين المقاعد ثم حدثت ارتجاجةٌ عنيفةٌ في جسد الطائرة كادت تُسقطها لولا أن تشبثت بأحد المساند..

شحبت وجوه الركاب واختلطت صرخاتُهم بصوتِ سرينة الإنذار التي راحت تدوي قبل أن يأتينا صوتُ المُضيفةِ مُجلجلًا بأن يلزمَ جميعُ الركاب أماكنهم.. لو كانت أخبرتنا أننا سنموتُ الآن لكانت أخف وطأ من صرختها المذعورة التي أطلقتها في نهاية تحذيرِها..

ألمح الفتاةَ وهى تُحاول أن تعود إلى مقعدها بجواري مرةً أخرى.. خطواتٌ قليلةٌ فقط هي كل ما كانت تفصلُها حين ارتجَّت الطائرةُ مرةً أخرى لكن أقوى من المرة الأولى بعشرِ مراتٍ على الأقل.. صرخت الفتاةُ وهي تفقد

توازنَها قبل أن يصطدم رأسُها بحافة صندوق الحقائب.. فقدت الوعي في لحظةٍ دون أن تُكمل الآهة التي أخرجتها وسقطت في الممر..

جسدُ الطائرة يميلُ إلى الأمام فجأةً.. تطايرت الحقائبُ والأجهزةُ المحمولة في الهواء ثم سقطت علينا أقنعة التنفس الموجودة أعلى المقاعد..

الصراخُ والهلعُ يشتد من الجميع، والدعواتُ إلى الله بأن يُنجينا يُطلقها أحدُ المُلتحين..

رأيتُ جسد الفتاة يتدحرجُ ككرةٍ ضخمةٍ تاركةً وراءها خيطًا من الدماء.. نزعتُ عني حزام الأمان واستعنتُ بحواف المقاعد حتى وصلت إليها.. حملتها بصعوبةٍ وعدتُ بها مترنحًا.. وضعتُها على مقعدِها وأحكمتُ ربط حزامها حتى لا تسقط ثم وضعتُ قناع الأكسجين حول وجهها وتركتها لمصيرِها.

زجاجُ نوافذ الطائرة يتهشَّم في سلاسةِ سقوط قطع دومينو متراصة على خط واحدٍ.. ضغط الهواء كاد ينتزعني من فوق المقعد.. لم أكن أتخيله بتلك القوة.. أيها الحمقى توقفوا عن الصراخ والذعر.. لا أريد أن أموت وسط كل هذا الغباء..

تنشطرُ الطائرة إلى نصفين كرغيف فينو في قبضة طفلٍ صغيرٍ.. يُمكنني أن أرى النصف الآخر وهو يُودعنا مُشتعلًا بمن فيه من ركاب..

ما تبقى من جسم الطائرة يهوي معي بسرعةٍ مهولةٍ باتجاه التحطم والتمزق على الأرض..

لا أعلمُ إن كان من مات محترقًا أم من سيموت متحطمًا هو الأفضل حظًّا.. الفتاة التي بجواري تنفصلُ عن مقعدها فتصير حرةً طليقةً في الهواء وفي قبضة الموت.. لم أحاول إنقاذها.. من الأساس لا يمكن إنقاذها.. لن ينجو أحد.. حتى أنا.. لا شك في ذلك..

هل أصرخُ الآن.. الأفضل أن أحتفظ بصراخي حتى اللحظة الأخيرة.. أعلم أنها ستكونُ بلا فائدةٍ، ولكن الصرخة الأخيرة هي بمثابة طابع البريد فوق خطاب الموت..

أعتقد أنني نسيتُ شيئًا.. لا يوجد وقتٌ لأتذكره.. لكن ما هو.. الأرض تقتربُ بسرعةٍ رهيبةٍ.. عزرائيل في انتظاري.. أنا خائفٌ.. فلينتظرْ قليلًا.. لمَ العجلة.. ألا يعلم أن العجلة من الشيطان!!.. انحنيتُ إلى الأمام ووضعتُ رأسي بين يديَّ لأحميه..

شيء مـا يرتطـمُ بجانـب وجهـي، فـيرنُّ صـداه داخـل أذني ويختلـطُ بجـزءٍ مـن جمجمتـي التـي كادت تتهشـم..

مشـاهدُ مُتقطعـةٌ بالأبيـض والأسـود لمـا مـررتُ بـه في الأيام السـابقة.. هنـاك مشـهدٌ أغفلـتُ عـن رؤيتـه.. كيـف فاتنـي.. وأيـن كنـتُ.. أعتقـد أن لحظـة الصرخـة الأخـيرة قـد حانـت.. هـا أنـا ذا أطلقهـا ممتزجـةً بآخـر أنفـاسي، ثـم أغمضـتُ عينيَّ.

خَاتِمَة

فتحتُ عينيَّ..

القبرُ ليس مُظلمًا مثلما أخبروني..

شعرتُ بدوارٍ عجيبٍ وصداعٍ رهيبٍ يُمزِّقان روحي وعقلي..

تلفتُّ من حولي.. كنتُ مُستلقيًا على بطني فوق بلاط أرضٍ صُلبةٍ غزلت عليها خيوطُ بيت العناكب..

حاولتُ النهوض.. الأرضُ تجذبني إليها كمغناطيس يحولُ دون وقوفي.. تركتُ جسدي وتحسَّستُ الأرضَ الباردة.. كانت عاجية اللون اقتربت من الصفار بفعل الزمن.. هناك لمبة صفراء تقفُ فوق سلك كهرباء مُتحديةً عامل الجاذبية..

أدرتُ وجهي إلى الأعلى، نحو السقف.. كرسي خشبي.. سرير عليه جثة ملفوفةٌ في الكفن.. منضدةٌ صغيرةٌ عليها بضعة أطباق طعام نصف فارغة.. لوحةٌ كبيرةٌ ثم أدركت أنها سجادة.. كل هذا رأيته مُعلقًا على السقف.. أي هراء هذا..

دقَّ قلبي بعنفٍ فضربتِ الدماء في نفوخ رأسي وكادت تخرجُ من مُقلتيْ عيني..

الحينُ، والحينُ فقط أدركتُ الأمرَ.. أنا مُلتصقٌ في سقفِ غرفةٍ ما.

فتحتُ عينيَّ..

وجدتُ نفسي مستلقيًا على السرير وقد قُيدت فوقه بسيورٍ جلديةٍ صُلبةٍ كالحديد..

حاولتُ أن أحرِّك نفسي لكن تحريك هرم كان أسهل.. في هلعٍ ساءلت نفسي ما الذي يحدثُ لي وكيف انتهى بي الحال هكذا.. لقد كان كل شيء جيدًا حتى دقائق قليلة أو على الأقل كنتُ أموتُ في حادث تحطم طائرة كما يليقُ برجلٍ محترمٍ..

تطلعتُ إلى السقف.. أرى آثار جسمي مرسومةً فوقه.. سمعتُ أصواتًا خافتةً.. لم أعرف في البداية ما هي.. ظهر أولها.. جرذ أسود ذو أنفٍ طويلٍ قذرٍ.. لمعت عيناه وقد أدرك تمامًا عجزي عن الحركة.. توقَّف فوق صدري مباشرةً.. تبعه جرذ ثانٍ.. ثم ثالث.. رابع.. خامس.. توقفتُ عن العدِّ.. قبيلة جرذان تعدَّدت أحجامُها غطَّتني تمامًا تخدشني بأظفارها الحادة الخشنة.. اقشعرَّ جسدي.. انقبضَ قلبي.. صرختُ.. وكأنني أطلقتُ إشارة البدء.. انقضُّوا عليَّ يأكلونني بلا رحمةٍ!

فتحتُ عينيَّ..

رأيتُ أمامي ظلًّا أسود ضخمًا راح يتخذُ شكلًا آدميًّا وإن كان شديدَ النحافة على نحوٍ غير طبيعي..

اقترب الظلُّ من جدار الحجرة الذي تموَّج على نحوٍ عجيبٍ ثم دخل فيه واختفى..

هززتُ رأسي وكدت أن أهشمه بقبضتي محاولًا إخراج تلك الأوهام منه.. وجدتُ نفسي داخل حجرةٍ نصف مُعتمةٍ ومُلقى على الأرضِ التي كانت باردةً مثل لوحٍ من الثلج..

نهضتُ بصعوبةٍ شاعرًا بكلِّ عظمةٍ في جسدي تئنُّ من الألم واتجهتُ نحو البابِ المُغلق.. سرتُ بخطواتٍ ضعيفةٍ مترنحةٍ.. أرسلتُ بصري من خلال ثقبِ المفتاح.. شاهدتُ نتيجةً ورقيةً تاريخُها يأتي بعد عامٍ مما هو مفروضٌ.. قبل أن أفكر من جديدٍ رأيتُ راجيةَ تمرُّ في ثيابٍ سوداء ووجهٍ خالٍ من الدماء، فبدت مثل الأموات.. ناديتُ عليها برجاء وتوسُّلٍ.. التفتتْ نحوي بأسى:

- يا خسارتك يا مجدي.. حصل ليك نفس اللي حصل للمرحوم طاهر.

ماذا؟!.. ماذا تقولُ هذه المجنونة.. لقد حرَّرت طاهر وقضيتُ على ملك الجن..

أصابني تيارٌ كهربائي حين أعدتُ التفكير.. الحجرةُ تدورُ من حولي مثل طاحونةٍ هولنديةٍ.. ارتفعت درجةُ جسمي فجأةً.. اكتشفتُ أنني أمسك في يدي علبة الفاليوم.. رفعتها أمامي وأنا مصدومٌ.. أعودُ بشريط حياتي للوراء، إلى حين كنتُ أقفُ على حافة النافذة وحيث هويتُ.. أيُعقل أن كل ما جرى مجرد كابوس لم أستيقظ منه بعدُ أم أنني صرتُ سجين برهوت. أرى أمامي وجوهًا تخبو ثم تبين..

سـمعتُ أصواتًـا مُتنافـرةً تُشـبه العـواء.. أحسسـتُ بيـدٍ قويـةٍ تقبـضُ عـلى ذراعـي.. نظـرتُ إلى صاحبِهـا وأنـا أتهـاوى عـلى الأرضِ.. طفـتْ فـوق عينـي غشـاوةٌ سـوداء.. مُسـتحيل.. وبـكلِّ مـا يُوجـد لـديَّ مـن قـوةٍ صرخـتُ:

ـ لا.. لا.. لاااااااااااا.

تمَّت

مَحْمُود الجعِيدِي

دار تويا للنشر والتوزيع